

جامعـــة الأزهـــر
كلية أصول الدين والدعوة بالمنوفية
كلية معتمدة من الهيئة القومية لضمان جودة التعليم والاعتماد



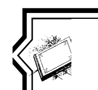
الأخلاق " البواعث والسياق " عند هيوم

إعداد

د / لطيفة بنت عبد العزيز بن عبد اللّه المعيوف

أستاذ العقيدة المشارك بقسم الدراسات الإسلامية، كلية التربية، جامعة الملك سعود

مجلة كلية أصول الدين والدعوة بالمنوفية العدد الثالث والأربعون، لعام ١٤٤٥هـ - يونيو ٢٠٢٤م والمودعة بدار الكتب تحت رقم ٢٠٢٤/٦١٥٧ والترقيم الدولي The Online ISSN ٢٩٧٤-٤٦٧٩ و ٢٩٧٤-٤٦٦٠ I.S.S.Nالطباعي



الأخلاق " البواعث والسياق " عند هيوم

لطيفة بنت عبد العزيز بن عبد الله المعيوف

قسم الدراسات الإسلامية ، كلية التربية ، جامعة الملك سعود ، السعودية
البريد الإلكتروني :- lalmayouf@ksu.edu.sa

ملخص البحث :-

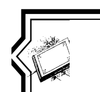
مشكلة البحث: الأخلاق هي العقبة العسيرة التي واجهت الفلاسفة، وخاصة في القرن الثامن عشر، بعد أن عجز البناء الفلسفي الإلحادي عن تقديم تبرير عقلي للأخلاق، فظهرت رأي هيوم١٧٧٦م (Hume)، أو فضيحة هيوم، في سؤال حول الأخلاق، مصدرها العقل أم العاطفة، وما هي قيمتها، ما جعل الأخلاق في الأوساط الأكاديمية والسياسية، والعامة، مبهمة، هذا البحث يصور الرأي والسياقات اللغوية والتاريخية والدينية له، ويعرض تداعياتها في الفكر الغربي، ويبين موقف الإسلام من الأخلاق. استخدم البحث المنهج الوصفي النقدي.

وخلص البحث بعدد من النتائج، منها:

من أوجه النقد الديني في العصر الحديث أنكار القيم والفضائل النسكية والدينية، تمهيدا لمواجهة مفهوم الأخلاق عامة.

موقف هيوم الحقيقي هو وضع مشكلة دون حل، وأثر ذلك على الدين والأخلاق، والصراع فلسفي.

استخدم الفلاسفة اللغة وأثرها في سجالهم الفلسفي، وظهر ذلك بسبب ترجمة مصطلح الأخلاق من اليونانية إلى اللاتينية ثم إلى اللغات الأوروبية.



الرؤية الإسلامية لمفهوم الأخلاق، والخير والشر، واضحة بذاتها، وهي تفتح مجال الفهم والقبول، وتحقق للإنسان سعادته في الدنيا والآخرة.

التوصيات.

- دراسة أثر بيان هيوم في الأخلاق في تبرير سلوك الدول المعاصرة.
- دراسة الفروق بين فلسفة روسو الرومانسية وفلسفة هيوم في الأخلاق.

الكلمات المفتاحية: هيوم، الفلسفة الحديثة، الأخلاق، الاتجاه الطبيعي.

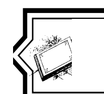
Moral
"Motives and context" according to Hume

Latifa bint Abdul aziz bin Abdullah Al-mayouf .
Department of Islamic Studies- Faculty of Education - King saud University - Saudi Arabia .

Email : lalmayouf@ksu.edu.sa

Abstract :
The atheistic philosophical structure in the eighteenth century was unable to provide a rational justification for morality, so Hume's statement (١٧٧٦ AD), or Hume's scandal, appeared in response to the question of whether morality is a question of rationality or emotion. It has created ambiguity in academic, political, and public circles. In this research, Hume's statement is examined in its linguistic, historical, and religious contexts, as well as its repercussions in Western philosophy.Method: Critical and descriptive.Modern religious criticism denies ascetic and religious virtues in preparation for confronting morality in general.In Hume's statement, he places a problem without a solution in order to influence religion, ethics, and philosophy.The linguistic-philosophical conflict in ethics is caused by the translation of the term ethics from Greek to Latin and then to European languages.
Islam's view of morality, good, and evil is clear in itself, and opens the way for understanding and acceptance, leading to human happiness in this world and the next. Recommendations. Studying the impact of Hume's fatwa on ethics in justifying the behavior of contemporary states -.Studying the differences between Rousseau's romantic philosophy and Hume's philosophy of ethics.

Keywords: Hume, modern philosophy, ethics, natural tendency.





المقدمة.

الحمد لله رب العالمين، والصـــلاة والســـلام الأتمان الأكملان على المبعوث رحمة للعالمين محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد:

تحتل الأخلاق مكانا بينا في الفكر الفلســـفي من خلال التنظير في مفهوم الخير والشـر، وعلاقتهما بالفضـيلة والرذيلة؛ وما ترتب على ذلك من صـراعات، ومجادلات فلسـفية عندما اصـطدم الفكر بالأخلاق، وظهر في الوسـط الفلسـفي الغربي التمايز في منهج البحث بين العلوم الأخلاقية والعلوم الطبيعية كان لها الأثر في مراحل الفلسفة، وانبعاث الإلحاد في العالم الغربي.

مشكلة البحث.

الأخلاق هي العقبة العسيرة التي واجهت الفلاسفة، وخاصة في القرن الثامن عشـــر، بعد أن عجز البناء الفلســـفي الإلحادي عن تقديم تبرير عقلي للأخلاق، فظهر رأي هيوم١٧٧٦م (Hume)، أو فضـيحة هيوم، في سـؤال حول الأخلاق، مصـــــدرها العقل أم العاطفة، وما هي قيمتها، مما ترتب حولها العديد من التســـاؤلات، خاصـــــة في تبرير لتقريب البحث بين العلوم الأخلاقية والعلوم الطبيعية، هذا البحث يستعرض هذه رأيه وبيان سياقته، بالعرض والتقييم.



أهمية البحث.

١. مثُلت الأخلاق في العالم الغربي دون تبرير ديني في وسط نشاط عقلانية علمانية، وفلسفة نقد الدين.
٢. عجز الفلسفة من تقديم تبرير منطقي عام ومشترك لمفهوم الأخلاق يتفق عليه أغلب الفلاسفة، جعل الأخلاق في الأوساط الأكاديمية والسياسية، والعامة، مبهمة. ما يتطلب عرض صورة منها.
٣. تعد الأخلاق من الموضوعات التي تواجه الإلحاد وتنقض دعواه.
٤. من الأهمية بيان الموقف الصحيح في الكتاب الكريم والسنة المطهرة لمفهوم الأخلاق وسلوك الإنسان، في وقت تتعارض الفلسفات والمذاهب.

أهداف البحث.

١. عرض صورة رأي ديفيد هيوم في الأخلاق.
٢. تناول السياقات اللغوية و التاريخية والدينية لرأي هيوم.
٣. عرض تداعيات رأي هيوم في الفكر الغربي.
٤. بيان موقف الإسلام من الأخلاق.

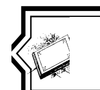
منهج البحث. الوصفي النقدي.

الدراسات السابقة.

تناولت عدد من الدراسات فلسفة ديفيد هيوم في المؤلفات التي عنيت بالفلسفة ورجالها، إلا أن الدراسة التي تتعلق بهذا البحث بشكل خاص، هي:



١. الأخلاق بين العقل والوجدان، محمود سيد أحمد، ١٩٠صفحة، وهو يستعرض فلسفة هيوم، ويقدم رؤية منطقه، وسعيه لتفسير الطبيعة الإنسانية وفق المنهج التجريبي، ويذهب المؤلف لوجود أثر هوبز على هيوم.
٢. فلسفة هيوم الأخلاقية، محمد مدين، ٢٠٠٩م، في ١٩٠صفحة، قدم فيها المؤلف قراءة لنصوص ديفيد هيوم وذلك للرد على اتهامات عدد من الفلسفة من أشهرهم الفيلسوف الإنجليزي جورج مور الذي اتهم هيوم بالوقوع في المغالطة الطبيعية(Naturalistic Fallacy)، يهدف مدين في كتابه إلى إعادة النظر في منهجية بناء رسالة هيوم، وذلك أن منطق الكتاب الأول يختلف عن منطق الكتابين الثاني والثالث، وكيف أن كثيرا من الانتقادات الموجهة لنظرية هيوم الأخلاقية مردها إلى تصور غير صحيح وهو أن الرسالة بأجزائها الثلاثة يسودها منطق واحد وهو منطق الجزء الأول.
٣. الفكر الأخلاقي عند ديفيد هيوم، بوكشيدة الجمعي، رسالة ماجستير، كلية العلوم الإنسانية والعلوم الاجتماعية، جامعة محمد بوضياف، ٢٠١٧م، الجزائر. تناولت الدراسة تأثير الوسط الفلسفي على هيوم، وتناولت بالدراسة العواطف في السلوك الإنساني، وأثر فلسفة هيوم على من بعده، هذه الدراسة تميل نوعا ما إلى تصنيف فلسفة هيوم الأخلاقية ضمن المغالطة الطبيعية خاصة في استعراض أنواع العاطفة، وبالتالي هي تقف في مواجهة مع كتاب محمد مدين، اعتمدت الدراسة كتاب (بحث في الفهم البشري، وبحث عن مبادئ الأخلاق، وهي المؤلفات التي وجهت للعامة، وقد تعمد هيوم ذلك

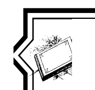


لينشرها بين العامة، ولم تعتمد الدراسة أهم أجزاء رسالة في الطبيعة البشرية والذي يمثل فلسفة هيوم، ومعظم الأسباب التي ساقها وأسند نتائجه إليها.

إضافة البحث.

الدراسات السابقة نافعة ومفيدة، وقد جاءت لعرض موقف ديفيد هيوم، وتصنيفه وفق الانتقادات التي وجهت له من الفلاسفة، وهذه الدراسة حرصت على إضافة جديدة، وهي:

١. بيان موقف هيوم الحقيقي في وضع مشكلة دون حل، وأثر ذلك على الدين والأخلاق، فلم توظف الدراسات السابقة غاية الصراع الفلسفي في الأخلاق، وهو التناقض، والذي أدى إلى مشكلة خطيرة في مفهوم الأخلاق.
٢. لم تستعرض الدراسات السابقة واحدة من سياقات رأي هيوم، وهي اللغة وتأثيرها، وأثر الترجمة من اليونانية إلى اللاتينية في مصطلح الأخلاق.
٣. لم تستعرض الدراسات السابقة الرؤية الإسلامية لمفهوم الأخلاق، والخير والشر.



التمهيد: التعريف بالفيلسوف ديفيد هيوم واتجاه فلسفته.

أولا: التعريف بالفيلسوف ديفيد هيوم.

(David Hume)،(١٧١١ -١٧٧٦م) اسكتلندي، درس في جامعة أدنبره، وأتقن اللغة اللاتينية وعرف قليلا من اللغة اليونانية، انتقل إلى فرنسا ودرس في (لافليش) وهي التي تعلم فيها ديكارت، في فترة مكثه في فرنسا أتم كتابه رسالة في الطبيعة البشرية وهو في الخامسة والعشرين، وهو يعترف بسبب وضع كتابه أنه لغاية معالجة عيوب الفلسفات السابقة، وصفت مسائل الكتاب بالصعوبة، كما نال الكتاب العديد من الانتقادات والمراجعات [١].

ولقد وصف هيوم بالشك، كما اتهم بالزندقة والإلحاد، ويرجع ذلك لمؤلفاته الأخيرة؛ وهي: بحث في الفهم البشري، وبحث عن مبادئ الأخلاق، ويصنف النقاد هذه المؤلفات أنها مقالات شعبية وشبه شعبية، مباشرة وسهلة، هاجم فيهما المعجزات ومسائل دينية [٢].

ثانيا: اتجاه فلسفة ديفيد هيوم.

هيوم في فلسفته تجريبي وإنساني، وهو اتجاه غلب على فلاسفة الإنجليز في العصر الحديث، حيث ارتبطت الفلسفة في ذلك العصر بالإنسانية، واعتبر الإنسان المقياس الرئيسي، ومثّل المذهب التجريبي بأن الحقائق يتم الوصول إليها عن طريق التجربة، واستخدام الحواس[٣] ، إلا أن الاتجاه الفلسفي لهيوم كان متراوحا بين الشك، والاتجاه الطبيعي، ويعد ناقدا للفلسفة الأرسطية والمسيحية من خلال فلسفته في الأخلاق.

---

(١) الموسوعة الفلسفية المختصرة، جوناثان ري، ترجمة فؤاد كامل وأخرون، ص٥٢٦.
(٢) تاريخ الفلسفة الحديثة، وليم رايت،ص٢٠٦.
(٣) المدخل إلى الفلسفة الحديثة، جود، ص٨.



المطلب الأول: صورة فتوى هيوم.

جاء صياغة رأيه في (No–Ought–From–Is) "لا وجوب مما هو كائن"، أو" لا يمكنك استنتاج "ما يجب" من "مما هو موجود"، بمعنى: لا يمكن استنتاج استنتاجات أخلاقية، والتي تتضمن كلمات أخلاقية مثل "يجب"، من مقدمات ليست أخلاقية تنتمي لعلم الأخلاق.

ظهر رأيه في كتاب رسالة في الطبيعة البشرية، وهذا المؤلف ينقسم إلى ثلاثة كتب هي على التوالي: الفهم، والعواطف، والأخلاق ، ويعد الكتاب الأول المهم والجديد في الفلسفة؛ والذي وصفه راسل بأنه أفضل أجزاء الرسالة[١]، حيث بنى استدلالته في الفهم البشري والاعتقاد، ويعد الكتاب الثالث نتيجة البحث، وقد ورد رأيه في الكتاب الثالث من الرسالة، كالتالي: الطريقة العادية للتفكير لإثبات وجود الإله، أو وضع ملاحظات تتعلق بشؤون البشر، فبدلا من الترابطات العادية للاقتراحات؛ تكون ولا تكون، فإنني أجد اقتراح مرتبط بيجب أو لا يجب، وهو تغير غير مفهوم، وهذا ال(يجب أو لا يجب) تعبير عن علاقة جديدة، فكيف يمكن أن تستنتج هذه العلاقة الجديدة من العلاقات الأخرى المختلفة كليا عنها[٢].

بنى هيوم هذه الفتوى من سياقات متعددة: السياق المنطقي، واتجاه الذاتية البحتة، ونهج الشك المقصود، وتجربة الإنسان الجزئي، والاتجاه الطبيعي، وغيرها.

---

(١) تاريخ الفلسفة الغربية، الكتاب الثالث، ص ٢٢٠.
(٢) رسالة في الطبيعة البشرية، هيوم، ص٤٧٩.



١. مخالفتها للبناء المنطقي.

وذلك باستنتاج أخلاقي غير متضمن في المقدمات، ما يجعل علاقة جديدة تظهر دون وجودها في المقدمات.

مثال: وعد زيد بمساعدة الأخرين (مقدمة صغرى)

مساعدة الأخرين واجبة (مقدمة كبرى)

وعد زيد واجب.(نتيجة)

وجوب مساعدة الأخرين ليست مسلمة، بل اختيار من زيد ترجع لشعوره ومبادئه الخاصة، والعرف والعادة التي تحيط به وتشكل قراراته، فلا يمكن استنتاج وبناء مسألة أخلاقية مما هو واقع، ويقاس على ذلك بما يستدل عليه في أمور عظيمة كالاستدلال على وجود الرب تعالى.

هذا الاستدلال المنطقي؛ هو أفضل ما أستند إليه ممن يبرر موقف هيوم في رأيه، وأن هيوم أبطل الاستدلال المنطقي في الأخلاق فقط، لكنه لم يذهب الى أبعد من ذلك.

٢. اتجاه الذاتية البحتة.

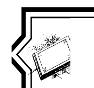
ترتبط هذا الرأي بما ساد في الفلسفة الحديثة، في المثالية الإنجليزية عند باركلي(١٦٨٥ –١٧٥٣)(George Berkeley) في نظرية تسمى اللامادية أو المثالية الذاتية؛ وهي نظرية تنكر وجود الجوهر المادي، و تؤكد على أن الموجودات كالطاولات والكراسي، والإنسان ، والاشكال الهندسية كالمثلث، ما هي إلا أفكار في عقل من يدركها حسيًا، وبالتالي فليس بإمكانها أن توجد دون أن

تُدرَك[1]، وقد تمسـك باركلي بالمذهب التجريبي القائل بأن كل معرفة تأتي من أفكار بسيطة عن إحساس وتفكير، فأي شيء موجود؛ إما أن يدرك، أو يكون فكرة يكون ذهنا يدرك أفكارا، ولم يتورع هيوم عن أن يمضي بأن وجود الشيء يتكون من معرفته واستقر في موقف الذاتية البحتة في الانطباعات والأفكار.

قسم هيوم المدركات الحسية للعقل البشري إلى نوعين متميزين هما الانطباعات والأفكار، وللتفريق بينهما يكون في درجة قوة تأثيرهما على الدماغ ووصوله للوعي، ثم عرف الانطباعات: أنها تلك التي تدخل بقوة وعنف للدماغ ومنها كل إحساس وانفعال وعاطفة، وعرف الأفكار : أنها الصور الذهنية الباهتة ومثالها تلك التي تحدث في التفكير و المحاكمة المنطقية [2].

تنقسم الانطباعات إلى انطباعات الاحاسيس وانطباعات التفكير وهذا النوع الثاني يستمد من أفكارنا فيقع في الانطباع على حواسنا فنشعر بالحرارة أو البرودة، باللذة أو الألم، ثم يبقى نسخة من هذا الانطباع في الذهن يتشكل وهو ما ندعوه الفكرة تتردد في النفس، وتنسخها الذاكرة والخيال وتصبح أفكارا، أما النوع الأول وهو المهم والأساس في الأفكار، فيقول: أن منشأه في النفس من أسباب مجهولة، ومع ذلك يجعل هيوم يجعل تفحص الإحساس يمت إلى علماء التشريح وفلاسفة الطبيعة أكثر مما يمت إلى الأخلاقيين[3].

(١) انظر: المدخل إلى الفلسفة الحديثة، سي. جود، ص٢٥. وانظر: تاريخ الفلسفة الحديثة، وليم رايت،ص ١٨٦.
(٢) رسالة في الطبيعة البشرية، هيوم، الكتاب الأول، ص١٩، بتصرف.
(٣) رسالة في الطبيعة البشرية، الكتاب الأول ، ص ٢٥.



٣. منهج الشك المقصود.

كانت الذاتية البحثة مقدمة حقيقة لما سعى إليه هيوم من خلال إثارة الشك، يقول:" بالنسبة لتلك الانطباعات فإن سببها النهائي غير قابل للشرح من قبل العقل البشري، ولسوف يكون من المستحيل دائما أن نبت فيها بصورة يقينية ما إذا كانت تنشأ مباشرة من الشيء أو هي نتاج القدرة الخلاقة للذهن، أو هي مستمدة من خالق كوننا...إننا نستمد الاستدلالات من تماسك مدركاتنا الحسية سواء كانت صحيحة أو زائفة وسواء سواء مثلت الطبيعة تمثيلا صحيحا أو كانت مجرد أوهام حواس" (١) وهذا منطلق اتهام هيوم بالشك، ومن وجهة نظر الباحث أنه شك مقصود متعمد، فهو مع ما سبق يرفض مبدأ السببية "الاستدلال الذي يقودنا من السبب إلى النتيجة لا يكون مستمدا من مسح تلك الأشياء بعينها...فليس هناك من شيء يتضمن وجود أي شيء آخر إذا ما فكرنا في هذه الأشياء بذاتها ولم ننظر إلى ما وراء الأفكار التي نشكلها، استدلال كهذا قد يرقى إلى مرتبة المعرفة، وقد يدل على التناقض المطلق، واستحالة فهم شيء من شيء أخر" وهو يرجع العلاقة والاستدلال في السببية إلى التوقع ، وهو لا يجد في التجاور والتعاقب كفاية في جعلهما سبب ونتيجة (٢).

٤. شعور وتجربة الإنسان الجزئي، والعرف والعادة.

وجد هيوم في شعور الإنسان وتجربته الخاصة ما يساعده في فتواه ، وذلك بربط ما يستقر في النفس وينشئ اعتقادا، يجعل الفكرة عن شيء ما جزء من

---

(١) رسالة في الطبيعة البشرية الكتاب الأول ، ص١٠٥.
(٢) انظر:رسالة في الطبيعة البشرية، الكتاب الأول،ص ١٠٧، ومابعدها.



الاعتقاد به، وهيوم يوجب التفريق بين الفهم والاعتقاد، فليس كل ما نفهمه نعتقده، والعمليات الفكرية من السبب والنتيجة تؤدي إلى نتيجة تتعلق بما هو فعلي وحقيقي متعلق بوجود الأشياء وصفاتها، وفكرة الوجود هي فكرة، بالتالي بعد أن نفهم وجود شيء نفهم أنه موجود، ونحن هنا لا نضيف جديدا، ويطبق هيوم مثالا بوجود الإله: فعندما نعتقد بوجود إله على أنه موجود، فلسنا نضيف معلومة جديدة بل الفكرة لا تزيد ولا تنقص(١)، وهذا يعنى أن هيوم يجعل الاعتقاد لا دليل عليه من الفكر، فحين نعتقد بشيء نعتقده لأننا نريد ذلك وبما يجلب لنا الرضا، أو نجد فيه سعادة، وأننا نفرق بين أن نفهم الأخرين دون أن نعتقد صحة أقوالهم، وهو يعرف الاعتقاد "أنه فكرة حية ذات صلة بانطباع راهن...وعندما ننتقل من انطباع عن شيء إلى فكرة أو اعتقاد بآخر فإن العقل لا يكون هو الذي بدت فيه بل العادة أو مبدأ الترابط" (٢)، ويجعل هذا التعريف يتطابق كليا مع شعور كل إنسان وتجربته، وحسب قبوله وإحساسه حين يتمثل أي شيء، وينشط الفكرة وينعشها، فكل عمل يسخر الذهن نفسه له سيكون أكثر قوة وحيوية طالما أن رغبته بذلك مستمرة "الناس قلما يقتنعون...الجزء الأكبر والبعيد من تفكيرنا مع كل أعمالنا وعواطفنا يمكن أن تكون مستمدة من لا شيء سوى العرف والعادة" (٣) والانطباع الذي لا يمكنني أن استنتج منه شيء أول ظهوره؛ يمكن أن يصبح أساس اعتقاد بواسطة تجربة نتائجه، بالتالي كل عملية تفكير محتملة ليست سوى نوع من الإحساس، إذ ليس فقط في الشعر والموسيقى علينا أن نتبع ذائقتنا وحسنا

---

(١) انظر:رسالة في الطبيعة البشرية، الكتاب الأول، ص١١٥.
(٢) رسالة في الطبيعة البشرية،الكتاب الأول ،ص١١٧.
(٣) رسالة في الطبيعة البشرية،الكتاب الأول،ص١٣٧.



بل أيضا في الفلسفة، فحين أفضل حججا دون أخرى فإنني انطلق من شعوري[١]
.

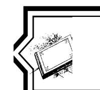
٥. الاتجاه الطبيعي.

يسود الكتاب الأول من الرسالة التأكيد على الاتجاه الطبيعي، ودور الطبيعة في الموجودات، وأثر فعلها فيهم"اختارت الطبيعة حلا وسطا، فلا هي تضفي على كل فكرة من خير أو شر القدرة على تفعيل الإرادة، ولا هي مع ذلك تنفي عنها كليا هذا التأثير [٢]، وهو يدفع بسيادة الطبيعة ونفاذ أثرها على كل الموجودات، بل يسرف هيوم في ذلك فيجعل العقل والتفكير متاح للحيوانات.

فهو يرى أن الحيوانات تنعم بالتفكير والعقل مثلها مثل الإنسان، وندرك عند استخدامنا وسائل من غايات معينة، بإرشاد العقل والتخطيط، نقوم بها لا عن جهالة، بل بما يؤدي إلى الحفاظ على الذات، أو الحصول على متعة، أو تجنب الألم، تقوم مخلوقات أخرى بأعمال مماثلة وتوجهها باتجاه غايات مماثلة، فكل المبادئ المتعلقة بالعقل والاحتمالات تدفع بقوة خفية للاعتقاد بوجود سبب مماثل، وهيوم يجعل طبيعة الفهم لتعليل العمليات الفكرية لدى الحيوان من خلال الحنكة في الحفاظ على ذاتها وتكاثر جنسها، كتجنب الكلب النار والجرف، وبناء الطير عشه وحفظه لبيضه، أنها تنبثق من تفكير لا يختلف، وبسبب قوة العادة الناس لا يندهشون من العمليات التي يقوم بها عقلهم، ويعجبون من غريزة الحيوان وهو

---

(١) انظر:رسالة في الطبيعة البشرية، هيوم، الكتاب الأول ،ص١٢٣.
(٢) انظر:رسالة في الطبيعة البشرية، هيوم، الكتاب الأول ،ص١٣٩.



يختم قوله "الطبيعة يمكن أن تنتج كل ما يمكن أن تنجه العادة، بل إن العادة ليست الا مبدأ من مبادئ الطبيعة وهي تستمد قوتها من ذلك المنشأ"[1]

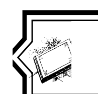
٦. ربط الفتوى بالأخلاق.

- المدركات الحسية نوعان: انطباعات وأفكار، والسؤال هل من خلال أفكارنا أو انطباعاتنا نميز بين الفضيلة والرذيلة، ولما كانت الفلسفة تنقسم إلى نظرية وعملية، فالأخلاق ضمن العملية بالتالي تؤثر في عواطفنا وأفعالنا.
- كون الأخلاق تؤثر في عواطفنا وأخلاقنا فلا يمكن أن تكون مستمدة من العقل، أو أنها بسبب العقل وحده، هذا استدلال لا يمكن أن ينكره أحد، وعليه لا يمكن أن ندعي أن الأخلاق يكتشفها العقل بالاستنتاج.
- الفهم البشري نوعان: مقارنة الأفكار، والاستدلال مما هو متحقق، والفضيلة والرذيلة ليسا من موضوعات مقارنة الأفكار ولا الاستدلال.
- تبرهن عملية التفكير على أن الأخلاق لا تكمن في أية علاقات هي موضوعات للعلم، وهي أيضا لا تكمن في شيء فعلي ومتحقق يمكن الكشف عنه بواسطة الفهم[2].

وضع هيوم مثالا: القتل العمد رذيلة، عند فحصه لا يوجد ما هو فعلي(بالفعل) حقيقي، أو وجود متشخص ندعوه رذيلة، إنما تجد عواطف معينة ودوافع، ولا شيء فعلي(بالفعل)، والذي يجده المرء هو الرفض لهذا الفعل ومحل هذا الرفض الشعور لا العقل.

---

(١) رسالة في الطبيعة البشرية، الكتاب الأول ،ص١٩٣-١٩٥-١٩٦. بتصرف.
(٢) انظر:رسالة في الطبيعة البشرية، هيوم، الكتاب الثالث،ص ٤٦٨- ٤٦٩-٤٧٠.



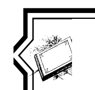
وهو بجعل "من المستحيل أن يكون بالإمكان التمييز بين الخير والشر أخلاقيا عن طريق العقل، نظرا لأن ذلك التمييز يؤثر على افعالنا التي لا يستطيع العقل وحده التأثير عليها، العقل يمكن أن يكون السبب الوسيط للفعل وذلك بتوجيه العاطفة، لكن لا أحد يزعم أن هذا التوجيه يكون مصحوبا بالفضيلة أو الرذيلة"(١).

بالتالي فالأفعال عنده لا تستمد قيمتها من تطابقها مع العقل أو مناقضته، ولا يمكنه مباشرة أن يمنع أو ينتج أي عمل من خلال معارضته أو تأييده، فالأفعال هي محل اللوم أو الثناء، لكنها لا يمكن أن تكون معقولة أو غير معقولة.

فالعقل بالمعنى الفلسفي تأثيره على السلوك في حالتين: عند استثارة العاطفة بإعلامنا عن وجود شيء هو موضوع مناسب لها، او عندما يكشف الرابطة بين الأسباب والنتائج بحيث يقدم لنا وسيلة لممارسة أية عاطفة، هاتين الحالتين هما دور العقل، وفي الغالب تكون زائفة وخاطئة ، والذي يعنيه هيوم أن الإنسان قد يظن أن فعلا ما؛ هو صحيح، أو يسعى لغاية صحيحة بوسيلة غير مناسبة، وقوعه في الخطأ يستحق اللوم، لكن لا يعنى ذلك خسة في أخلاقه وأن يوصف بالسوء والجرم(٢).

---

(١) رسالة في الطبيعة البشرية، هيوم، الكتاب الثالث،ص ٤٧٣.
(٢) رسالة في الطبيعة البشرية، هيوم، الكتاب الثالث، ص ٤٧٠-٣٧١.



المطلب الثاني: سياقات فتوى هيوم.

أولا: سياق الترجمة وأثر اللغة في الفتوى.

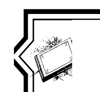
١. اللغة والفلسفة الحديثة.

هيوم أثناء دراســـته في جامعة أدنبره أتقن اللاتينية وعرف قليلاً من اللغة اليونانية ، وقد أعجب بالأدب القديم [١]، ولعل هذه المعرفة هي ما مهد لموقف هيوم في ميله للاتجاه الطبيعي من جهة، وبناء فلســفته في أصــل الأخلاق من جهة أخرى، خاصــة في ظل اضـطراب تاريخي لأصـل كلمة أخلاق، ففي"اللغة اللاتينية وكذلك اليونانية لا وجود لكلمة يمكن ترجمتها ترجمة صـــحيحة مثل ترجمـة (كلمـة) و(أخلاقي)، فلا وجود للكلمـة الأصـــليـة التي ترجمـت إلى أخلاقي(Moralis) مثل سـابقتها اليونانية(Ethikos)، وكان شـيشـرون قد ابتدع (Moralis) ترجمة للكلمة اليونانية وتعني(للخُلق) ولم يقصـد بها خُلق الإنســان أكثر من مجموعة تصرفاته وميوله للسلوك"[٢].

مثل التاريخ الفلســفي في اللغة أثراً على الفلســفة والفلاســفة في العصــر الحديث، فكانت رؤية هوبز(١٥٨٨-١٦٧٩م)،(Thomas Hobbes) قد انتقت اســتعمالا مهما من اســتعمالات اللغة وقدمت له تحليلا، وكانت معقوليتها نابعة من تركيز محدود على اســـتعمالات بعينها للغة، وأن قوتها من تركيزها على الوصــف قيمة الكلمات أنها إشــارات الى أفكارنا أو إشــعارات بها، ورؤيته للغة بوصـفها ترميزا لأفكارنا بما يتيح لنا امتلاك هذه الأفكار برؤية أوضـح[٣]، لذا قال

---

(١) تاريخ الفلسفة الحديثة، ويليم رايت، ص٢٠٥.
(٢) بعد الفضيلة، السدير، ص١١١.
(٣) انظر:حيوان اللغة، تشارلز تيلور، ص١٠٦.



هيوم قال:"اللغة العادية قلما تقوم بأية تمييزات دقيقة جدا، بل تطلق الاسم نفسه على كل العمليات التي تشابه بعضها، وهذا مصدر لا مناص منه للغموض والإرباك"(١) فاللغة تتيح التفكير في الكليات لا الأسماء الخاصة المحددة فقط.

تصور هوبز للعقل بوصفه حسابا فالاستدلال "عملية جمع وتركيب وتعيننا اللغة على ذلك بسرعة، ولابد أن نكون واضحين بشأن معنى كلماتنا، ويكمن الخطر في أننا نستغرق مستندين إلى سلطة التراث المرجعية –كلمات طنانة وتعريفها شائن –يقودنا للعبث والهراء "الكلمات بدائل النقود لدى الحكماء لا يستعملونها إلا للحساب، ولكنها نقود للحمقى الذين يثمنونها بسلطة أرسطو أو شيشرون أو توما الاكويني"(٢).

وقال كانط: "إن دلالات العلامات في الرياضيات يقينية، في الفلسفة وفي الميتافيزيقيا الألفاظ تكتسب دلالتها من الاستعمال اللغوي، ولما كنا نستخدم غالب الأحيان ألفاظا متشابهة جدا تنطوي مع ذلك على تباين شديد فيما بينها لا يكاد يظهر" وقد ضرب مثالا: نقول أن امرئ يميز بين الذهب والنحاس، بأن الكثافة متباينة، ونقول أيضا إن الحيوان يميز غذاء عن آخر حينما يأكله ويترك الآخر، في الحالتين نستخدم لفظ ميز فهو في الأولى نعني بها معرفة الفرق وفق حكم، والثانية نشير بها لتصرفات لا تكون يسبقها حكم"(٣).

---

(١) رسالة في الطبيعة البشرية، الكتاب الأول ، ص١٢٥.
(٢) حيوان اللغة، تشارلز تيلور، ص١٢٩.
(٣) مقالات في الميتافيزيقيا والتصوف، كانط، ص ٢٧٢.



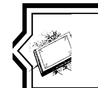
٢. تقييم مكانة اللغة وتوظيفها.

مااللغة وما طبيعتها؟ هو سؤال أحد القضايا الرئيسية في فلسفة اللغة، إن التعريف بأن اللغة وسيلة للتعبير والتواصل يواجه العديد من المنازعات، وبسبب تلك الصعوبة في التعريف، ذهب بعض العلماء للتركيز على الجانب الوظيفي للغة، والتمييز بين عدة مستويات لوظيفتها، فمنها التواصلية والتصويرية والتمثيلية والمفهومية، اللغة في علاقتها بالفكر يمكن وصفها أنها الوجه الخارجي للفكر، بالتالي لا يمكن فصل مشكلات اللغة عن مشكلات الفكر[١].

واجهت الفلسفة اليونانية مشكلة لغوية لاتزال قائمة، تتمثل في الدلالة، وقد تنازع الفلاسفة وعلماء اللغة وعلماء النفس فيها، ولم تتمكن الفلسفة في مراحلها أن تفصل في هذا النزاع، والحل الذي تقدمت به مفاده أنه من غير علاقة الهوية بين الذات العارفة موضوع المعرفة فإن فعل المعرفة لا يمكن تفسيره، وبالتالي جاءت نظريات عديدة عجزت عن الإجابة عن إشكالية طبيعة اللغة، لأن الكلمات هي عبارة عن تعابير إرادية وغير إرادية للعواطف والمشاعر الإنسانية، وفي الموقف الطبيعي فسرت نظرية التعبير بفرضيات متعددة منها: اللغة غريزة تظهر في شكل الصراخ عند الحيوان والإنسان وتعبر عن الخوف والفرح ، وبالتالي اختزل موضوع الدلالة إلى موضوع الطبيعة وتحولت المشكلة إلى موضع فيزيولوجي بيولوجي، لقد كان النهج الطبيعي مزلة أخرى في صناعة مشكلة معرفية جديدة والتي دعت إلى أن بنية اللغة هي التي تتطلب تفسيرا وليس أصل الكلمات–وفق مثال الشجرة التي تخفي الغابة– وأن التحليل للكلمات يبين فرقا

---

(١) انظر الفلسفة واللغة، الزواوي بغوره ، ٣٥٨بتصرف.



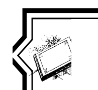
بين الجمل الانشائية والجمل الخبرية، ولا يمكن المساواة بينهما أو إلغاء طابعهما المنطقي(١).

لقد اعتنى جون لوك(١٦٣٢- ١٧٠٤م) باللغة ضمن نظرية المعرفة، فالمعرفة الإنسانية عنده تتكون من الأفكار والعقل مستودع لها، والتفكير معالجة لها، والتواصل اللفظي هو تناقل للأفكار، واللغة هي الوسيلة، وقد بدت فكرته عن اللغة أنها قد تكون عائقا في طريق الفهم والاكتساب والتقدم ونشر المعرفة وذلك بسبب نواقصها، فالكلمة إشارة اعتباطية إلى الفكرة، فليس هناك مبدأ عام يحدد الإشارة، وليس من الضروري أن يسمى لون العشب أخضر، بالتالي جعل الكلمات هي إشارات للأفكار تفرضها إرادة المتكلم، والعلاقة بين الكلمة والفكرة علاقة يقيمها الشخص وليس المجتمع، والخصوصية بين الفكرة والكلمة لا يلاحظها إلا المتكلم، فذهب إلى ما يسميه النواقص التي تقوض الثقة في اللغة، خاصة أن العلاقة بين الفكرة والكلمة فعل اعتباطي من المتكلم، وقد حاول لوك وضع حلول لهذه النواقص، لكنها بقت فجوة واضحة لم تبين كيف يتأكد من أن شخصا آخر يشير إلى الفكرة نفسها كما نشير نحن(٢).

من خلال النص السابق يمكن أن نقول أن هيوم قد وجد من خلاله مدخلا ينفذ به بواسطة اللغة نحو الأخلاق، فهيوم وهو المدرك لهذا الجدل في الجانب الفلسفي والجانب الطبيعي، يعلم أن كلمة (Moralis) في الترجمة اللاتينية استعملت في الترجمة الإنجليزية بمعنى (عملي) وفي تاريخها كانت جزء من

---

(١) انظر الفلسفة واللغة، الزواوي بغوره، ص١٠٦- ١١٠بتصرف.
(٢) انظر: أعلام الفكر اللغوي،روي هاريس، ترجمة: د. أحمد الكلابي،ص١٧٢، ١٧٣.

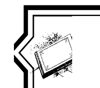


تعبيرات الفضيلة الأخلاقية ثم صارت صفة، ثم في القرن السادس عشر صارت بمعنى (متعقل) ثم تحولت لمعنى ذي صلة بالسلوك الجنسي، فاصبح التطور في المعنى كالتالي: أن نصف إنسانا بأنه مهمل في واجباته بلا أخلاقي، في حين أصبح المعنى في أواخر القرن السابع عشر بأنه منحل أخلاقيا[1]، ولذلك قال كانط: "الألفاظ تكتسب دلالتها من الاستعمال اللغوي، باستثناء ما يكون منها محددا بتقييد منطقي، لكننا في غالب الأحيان نستخدم ألفاظا متشابهة تنطوي على تباين فيما بينها لا يكاد يظهر" [2]

المتعلق في فتوى هيوم، اللغة بطبيعتها تجريد وكلماتها تنطبق على أشياء عديدة، فاللغة تدخل في باب العموم وليس باب الخصوص لأن من غير الممكن تسمية جميع الأشياء بمسميات معينة، مثاله كلمة كرسي تنطبق على جميع أنواع الكراسي على اختلافها، ولا نستطيع أن نطلق أسماء لكل جزئي منها؛ فذلك يؤدي لما يسمى بانفجار اللغة، وما يتبعه من التذرير اللامتناهي بالتالي يجعل اللغة غير صالحة للاستعمال، بالتالي الفكر عندما يسمي فإنه يسمي بحسب الأجناس والأنواع أو المجموعات ونحوه، لكن في حدود معلومة، لذا وجب تصور علاقة بين الدال والمدلول... إن النظرة الاصطلاحية في علم اللغة الحديث تهدف للقضاء على الأسئلة الميتافيزيقية للغة، وحتى هذه النظرة وإن سعت لغايتها فهي تتضمن نزعة ميتافيزيقية تؤدى لنظرة ثنائية تفترض وجود عالم للغة وأخر للأشياء [3]، بالتالي تعود النظرية على نفسها.

---

(١) انظر:بعد الفضيلة، السدير، ص١٠٢.
(٢) مقالات في الميتافيزيقا والتصوف، ص٢٧١.
(٣) انظر الفلسفة واللغة، الزواوي بغوره، ص ٣٦١بتصرف.



ثانيا: سياق مبادئ الأخلاق والطبيعة البشرية.

في العصر الحديث برزت مسألة التسويغ العقلي للأخلاق، بحيث يكون للأخلاق فضائها الخاص كمعتقد جديد، وبه تنفصل عما يسمى ديني وقانوني وجمالي، نجم عن ذلك نهوض مشروع تسويغ عقلي للأخلاق وهو مشروع رئيسي في الثقافة الأوروبية، وفي الجانب الأخر ظهر مشروع موازي له وهو تعطيل هذا المشروع في الخلفية التاريخية، ونتيجة لذلك تمزق أجزاء الثقافة الغربية في المفاهيم(١)، وظهر بصورة تشرذم مقصود لصناعة مشكلة تبدد أي مسعى لتبرير الأخلاق، بعيدا عن الدين، القانون، الجمال، فتبقى العاطفة والشعور والإحساس الفيصل فيها، وكما سعى جان جاك روسو إلى جعل الإحساس والشعور هو الفيصل في الحياة حينما كتب أن العلوم والآداب والفنون هي أسوأ أعداء الأخلاق، لأنها تخلق الحاجات فهي مصادر الرق، وأن الانسان خير بالطبيعة وأن المنظمات وحدها هي التي تجعله سيئاً (٢)؛ سعى صديقه هيوم لعزل الأخلاق من أجل أن تبرز العاطفة مع صورتها المميزة صورة علاقة الكلام وأنماطه(٣).

لقد كان للقانون الطبيعي حظوظ وظهور من خلال عدد من الفلاسفة في العصر الحديث، منها ما يتعلق بحظوظ نفس، ومنها ما يتعلق بنهج حياة، ومع ذلك اعتنى المفكرون السياسيون بصياغة القوانين وربطها بالدين والقانون المدني، لحماية المجتمع وضبط الناس يقول مونتيسكو(١٦٨٩-١٧٥٥م)(Montesquieu) :" يسيطر على الناس بأنواع من القوانين؛ القوانين الطبيعية،

---

(١) انظر:بعد الفضيلة،ص ١٠٣. بتصرف كبير.
(٢) تاريخ الفلسفة الغربية، رسل، الكتاب الثالث،ص ٢٥٢.
(٣) بعد الفضيلة، السدير، ص ٩٧. بتصرف.وانظر: حيوان اللغة، ص٢٢٠.

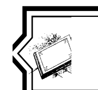


وبالحقوق الإلهية التي هي حقوق الدين، وبالحقوق الكنسية أو القانونية...تخضع القوانين البشرية لجميع الحوادث التي تقع، وتتغير بطبيعتها كلما تغيرت عزائم الناس، قوانين الدين ثابتة، تقضي القوانين البشرية بالحسن، ويقضي الدين بالأحسن" [(١)]، ومن جانب آخر وجد عدد من الفلاسفة في ذلك النشاط لفصل الأخلاق عن الدين مخاطرة ، يقول كانط:"مثلت الفصل الذي وقع على الأخلاق في الفلسفة في العصر الحديث، حينما نزعت مفاهيم تمثل خلفية وحدة الحياة الإنسانية والممارسات والخيرات التي في داخل هذه الحياة فما يبقي للفضائل من مستند، لذا كان فزع الفلسفة من هذا الفصل ما يحملهم على المقاومة الفلسفية، وهو ما دفع كانط ليقول :"الخير إنما هو استكمال لغاية، وهو لا يبلغ إلى الوسائل إلا بواسطتها فحسب"[(٢)].

ولتحقيق الفصل بين الأخلاق بعموم وبين الدين والفضائل النسكية، والقانون المدني، تنبه هيوم إلى ما ساد في الفكر الغربي عبر امتداد التاريخ الديني أن المرجعية للأخلاق الكلاسيكية تتمثل في مذهب أرسطو، والذي جعل منه توما الاكويني الامتداد الفلسفي الديني، وخاصة في موضوعات الفضيلة والرذيلة، ومفهوم الخير والشر، فمقاومة المذهب الأرسطي والمتصل بالدين في بعض جوانبه؛ حرمان الفضائل من خلفيتها الفكرية، مما أدى لضعف الدين من ناحية وضعف مستند للأخلاق من ناحية أخرى؛ الأمر الذي جعل في نهاية القرن السابع عشر توفير تسويغ وتبرير للفضائل أمرا مستحيلا، هذه الاستحالة مكنت

---

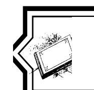
(١) روح الشرائع، مونتيسكو،ص ٤٩٩.
(٢) مقالات في الميتافيزيقيا والتصوف، ص١٨٣.



بعض الفلاسفة ومنهم هيوم؛ من جعل الفضائل ميولا واختيارات ترجع للشعور، والخطوة الثانية هي ربطها بالقانون الطبيعي فتصبح تعبيرا عن عواطف الفرد الطبيعية، وترتب على ذلك نشوء إشكالية لصياغة أخلاقية تحل المسائل التي تطرحها الإنسانية وفق المفهوم الطبيعي، بالمساواة بين محتوى الأخلاق والغيرية، فوصف البشر بالأنانية والخطورة ذلك الوقت لسعى كل إنسان لغايته وخيره، ومقاومته لأي خير يخص غيره، و لأن الخير وفق مفهوم أرسطو مشترك إنساني، هذا الفهم اعتبره فلاسفة القرن السابع عشر -خاصة اتباع الاتجاه الطبيعي- وهماً لأن كل إنسان يسعى بطبيعته لخيره، وحتما ستؤدي هذه الطبائع البشرية لخلق فوضى، فسعى هيوم للتمييز بين الفضائل الطبيعية وهي الملائمة لرغباته وعواطفه، والفضائل الاصطناعية والتي تكونت اجتماعيا وثقافيا لمنع التعبير عن تلك العواطف الخاصة حماية للخير الاجتماعي، والسؤال لماذا[١].

هيوم بعد أن فصل الأخلاق عن خلفيتها الفكرية والمتمثلة في الفضائل الدينية والفضائل الأرسطية يجيب عن سؤال: لماذا نعتبر بعض صفات وأفعال عند الأخرين مقبولة وهي ليست لمنفعتنا، وهي تحقق مصالحهم دون مصلحتنا؟ بدت إجابات هيوم ضعيفة ففي نهاية كتابة رسالة في الطبيعة البشري يقول:"من مصلحتنا البعيدة المدى أن نكون عادلين"[٢]، وفي الجزء الثالث من الكتاب الثالث، قسم في أصل الفضائل والرذائل الطبيعية كتب هيوم: المحرك الأول أو المبدأ الفعال في الذهن البشري هو السرور أو الألم، وهو يجعل "التمييزات

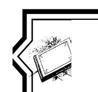
(١) انظر: رسالة في الطبيعة البشرية، هيوم، الكتاب الثالث، ص ٦٠٥- وانظر بعد الفضيلة، السدير، ٤٤٥ بتصرف.
(٢) رسالة في الطبيعة البشرية، الكتاب الثالث، ص ٥٠٣.و ٥٧٩.



الأخلاقية تعتمد على مشاعر خاصة معينة بالألم والسرور، وكلما كانت الصفة الذهنية في أنفسنا أو في الأخرين توفر رضى ذاتياً، فهي فاضلة بالطبع، وكل شيء من هذه الطبيعة يسبب الألم فهو رذيلة" (١) بالتالي ما طبيعة العلاقات- الأخلاق المتبادلة- بين الناس في المجتمع الواحد، والتي لا تحقق لنا فائدة ذاتية بل ربما تتعارض مع مصالحنا ونفعنا، يفحص هيوم طبيعة التعاطف وقوته، ثم يجيب:"أذهان الناس جميعاً متشابهة في إحساساتها وعملياتها، ولا يمكن لأي امرئ أن يتأثر بأية عاطفة لا يتأثر بها الآخرون، بدرجات متفاوتة، كل العواطف تنتقل بسهولة من شخص لآخر وتسبب تحركات مرافقة في طبيعة بشرية"(٢)، ويضرب مثالا العمليات الجراحية التي تثير الشفقة والتعاطف بمجرد رؤية الأدوات(٣)، وهو مثال هزيل لأنه لا يشمل شعور الجراح والطاقم الطبي، وهم أكثر الناس عناية وحرصاً لمصلحة المريض، ومع ذلك هم على رأس هرم الفضيلة، وفي نفس الوقت شعور المجرمين الذين يسفكون دماء الأبرياء دون أن يرتعد لهم جفن بل يجدون في ذلك سروراً ولذة، وهم أخس الناس وأبعدهم عن الشعور، ولأن رده كان هزيلاً؛ قال هيوم بما نقده في الكتاب الأول من الرسالة ووقع في شركه المنطقي واستنتج ما يجب مما هو كائن فقال:" الكثير من الفضائل الطبيعية لها ذلك الميل لخير المجتمع، ما من أحد يمكنه أن يشك بها، فالحلم، وحب الخير، والإحسان، الكرم، الرأفة، الاعتدال، الإنصاف، كلها تحمل الرقم الأكبر بين الصفات الأخلاقية وتدعى عموما بالفضائل الاجتماعية للإشارة

---

(١) رسالة في الطبيعة البشرية، هيوم، الكتاب الثالث، ص٥٧٦.بتصرف يسير.
(٢) رسالة في الطبيعة البشرية، الكتاب الثالث، ص ٥٧٧.
(٣) انظر:رسالة في الطبيعة البشرية، الكتاب الثالث، ص ٥٧٧.



إلى ميلها إلى خير المجتمع"(١)، وهذا أيضـــا مخالفة للقانون الطبيعي، يقول مونتيســكو :"الناس عدلوا عن اســتقلالهم الطبيعي ليعيشــوا تحت ظل القوانين السـياسـية، وعدلوا عن شـيوع الأموال ليعيشـوا تحت ظل القوانين المدنية، والناس يكسبون الحرية بالقوانين الأولى، وهم يكسبون الملك بالثانية" (٢).

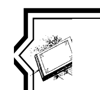
في ظاهرها تبدو الغاية القصـــوى لهيوم في كتابه الرســالة؛ رد الأخلاق للطبيعة الإنسانية المستجيبة لظروف مختلفة ولذلك قال" أنا أرغب أن أخذ قائمتي من كتاب شيشرون" وقال" أشعر بنفس السرور الحي من فضائل شخص عاش في اليونان قبل ألفي ســنة"(٣)، والذي يبدو للباحث أن الغاية القصــوى لهيوم هي رفض التفريق بين القدرات الطبيعية والفضائل الأخلاقية فالاختلاف بينهما لفظي، وهاجم كل نظرة غائية للطبيعة الإنسانية فرفض وجهة النظر الأرسطية، ولذا وجد في الفلسفة الطبيعية ما يستند إليه في فتواه.

لقد كان سـلوك هيوم غريبا في تقويض أسـس الأخلاق، وإعادة إنشـائه وفق بناء وثني، وعند المقارنة مع معاصــرة مونتســكيو، والذي أبقى دينه مع وجود اعجابه بالمذهب الطبيعي، فقال في ثنائه على المذهب الرواقي الطبيعي:" لو عدلت ســاعة عن التفكير في أنني نصــراني ما امتنعت عن عد القضــاء على مذهب زنون من مصائب الجنس البشري" (٤).

ثالثا: موقف النقاد من فتوى هيوم.

---

(١) رسالة في الطبيعة البشري، الكتاب الثالث، ص٥٧٩.
(٢) روح الشرائع، ص٥١٣.
(٣) انظر: رسالة في الطبيعة البشرية، الكتاب الثالث، الصفحات: ٥٨٢، ٦٠٦، ٦٠٩.
(٤) روح الشرائع، مونتيسكو، ص ٤٣٧.



وجه الفيلسوف الأمريكي السدير ماكنتاير نقدا شديدا على موقف هيوم في الأخلاق، خاصة في مقاومة هيوم لغائية الأخلاق سواء أرسطية أو نصرانية، فأصبحت الفضيلة هي غايتها وهي مكافئتها وهي دافعها، المعيار الوحيد للفضيلة والتحقق الأخلاقي يكون في الإذعان الكلي للقانون الطبيعي(١)، وضرب مثالا فضيلة الصبر "فهو فضيلة مرتبطة بفضيلة الأمل، فأن تكون صبوراً يعني أن تكون مستعداً لأن تنتظر حتى يتحقق الوعد...عند الرواقية ولعله نفسه عند هيوم يعنى أن تكون صبوراً، هي أن تكون مستعداً للعيش من دون أمل"(٢).

وفي مقاربة بين هيوم وكانط الذي يقول: "في الميتافيزيقيا المفهوم معطى لي من قبل، ولو كان غير بين، حيث يتعين علي أن أبحث له عن مفهوم واضح وتام ومحدد، فالأمر صار وجوبا القيام ببيان أفكار غامضة"(٣)، يظهر ذلك الخوض الشديد ضمن المجال الأخلاقي في الفلسفة الحديثة إثبات أو تبرير رجوع الأخلاق للعقل أو للعاطفة والشعور، أسهم كل موقف منهم بالاستدلال على فشل الآخر، والحال أن حججاً استبعدت إمكانية إقامة الأخلاق على العقل، والحجج الأخرى استبعدت إمكانية إقامتها على العواطف، والمجموع الكلي للنقد الفعال لكل موقف انتهى إلى إخفاق الجميع، بالتالي افتقرت الأخلاق في الفلسفة لأي أساس منطقي مشترك، وبسبب هجمات النقد الديني وسيطرة عقلانية العلمانية أصبح الدين الكنسي عاجزا عن توفير الخلفية المشتركة للخطاب الأخلاقي، ثم

(١) انظر: بعد الفضيلة، السدير ماكنتاير، ص٤٥٦.
(٢) بعد الفضيلة، ص٤٣٨، بتصرف.
(٣) مقالات في الميتافيزيقيا والتصوف، كانط،ص٢٧٠.



تحولت الفلسفة فيه من بعد تاريخها الحافل والمؤثر في السياق الثقافي إلى موضوعات أكاديمية هامشية، وثرثرة فلسفية.

تطرف هيوم في الطبيعة البشرية ومعرفتها، فلم يتورع عن القول بأن وجود الشيء يتكون من معرفته، واستقر في الموقف الذي يدعى الذاتية البحتة، الذي يقرر أن الحالات العقلية هي الأشياء الوحيدة التي يمكن معرفة وجودها في الكون، واعتقد هيوم وجود ذوات الاخرين وهذه الذوات عنده مجموعة من المدركات ولكن لا مبرر عنده بذلك وفقا لمقدماته [1]، من الملاحظ عند هيوم أن الحالات العقلية هي المقرر لوجود الأشياء وفي تعدد الذوات تعدد للحالات العقلية، هذه مشكلة، والثانية هي طرح مشاكل جديدة في الفكر الفلسفي دون دليل أو مبرر، هو ما يدل على تقصد وضع مفترقات عديدة للفكرة الواحدة.

نقدت الواقعية هيوم في الذاتية البحتة، وهي أكثر الاتجاهات الفلسفية التي بينت عدم اتساق فلسفة هيوم في الذاتية البحتة وذلك باتهامها أنها تبني نتيجة مخطئة على قضية صحيحة وذلك في قولهم يستحيل أن يكشف عن شيء لا يكون معروفا، ثم الاستنتاج بأن خاصية معرفة الأشياء هي التي تكوّن وجودها، فالأشياء لا تكون موجودة إلا عندما تكون معروفة [2]، في حين أن النتيجة الصحيحة: الأشياء المعروفة معروفة، ثم إن فلسفة هيوم الذاتية يمكن أن تعطي للمغالطي أن يستنتج إن جميع الأشياء معروفة، وهيوم من جهة أخرى ينكر أي وجود لانطباع الأنا الجزئية، فليس ثمة فكرة عن الأنا، بالتالي لا يمكن أن يكون

---

(١) المدخل إلى الفلسفة الحديثة، سي، جود، ترجمة: كريم متى، ص٢٤.
(٢) انظر: المدخل إلى الفلسفة الحديثة، سي، جود، ترجمة: كريم متى،ص٢٧. بتصرف.

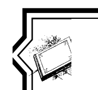


لنا فكرة عنها[1]، ولا يترتب على هذا إدراك إن كان ثمة أنا بسـيطة أم لا، وأن الأنا باستثناء كونها أشبه بحزمة إدراكات، لا يمكن أن تدخل في أي جزء من معرفتنا، هذه النتيجة الغاية منها التخلص من آخر استخدام باق للجوهر وهي مهمة في اللاهوت من حيث تلغي كل معرفة مفترضة عن النفس، وهي مهمة فتحليل المعرفة ما دامت تبين أن مقولة الذات والموضوع ليست أساسية [2].

رفض هيوم الأساس الغائي للأخلاق سواء أرسطي أو نصراني، ، وهو في الكتاب الثاني من رسالة في الطبيعة البشرية يعترف فعليا أنه من دون نظام غائي فإن مشروع الأخلاق كله يصير غير مفهوم، وقدم النظام الغائي على أنه افتراضا قبليا للعقل العملي المحض، و لذلك أنتقد في محاولته لتشييد الأخلاق على الطبيعة الإنسانية، والذي جاء على صورة شك وليس على صورة تأكيد تاريخي في وصفه الانتقال من جمل عن الإله أو الطبيعة الإنسانية إلى أحكام أخلاقية: من يكون و لا يكون/إلى يجب أو لا يجب، وهو ما يحتم على هيوم تقديم سبب لما يبدو غير ممكن تصوره.[3].

اتباع الاتجاه الطبيعي أيضا نقدوا فكرته، إذ لم يدعو الاتجاه الطبيعي لهذه الفوضى، فكل قانون ينشئه الإنسان مسبوق بمعرفة فطرية، يقول مونتسكيو:" قوانين الطبيعة هي قبل جميع القوانين وهي تدعى بهذا الاسم لاشتقاقها من نظام وجودنا...ومعارف الإنسان قبل قيام المجتمعات من الواضح إلا تكون أفكاره

(١) انظر رسالة في الطبيعة البشرية، الكتاب الأول، الصفحات:٢٧٠، ٢٧٣.
(٢) تاريخ الفلسفة الغربية، بيرتراند رسل، الكتاب الثالث، ص٢٢٣.
(٣) انظر: بعد الفضيلة، السدير ماكنتاير، ص١٣٥.

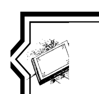


الأولى نظرية" [١]، وهذه القوانين توضع لمخاطبة العقل لتنعم بالقواعد، لا بنصائح أبدا...اذا ما شـــقي بلد بدين لم ينعم به الله وجب أن يتوافق هو والأخلاق دائما، ذلك لأن الدين ولو كان باطلاً هو أحســـن ضـــامن يمكن الناس أن ينالوه عن صدق الناس[٢]، ويقول كانط:" في الميتافيزيقا نبحث بواسطة تجربة باطنية يقينية هي الوعي المباشـر والبديهي عن السـمات التي توجد دون أدنى شـك في مفهوم يتعلق بخاصـــية عامة ما، وحتى إن لم يكن في إمكانك أن تدرك حقيقة الشــــيء ستكون قادرا على استخدامه مع ذلك استخداما يقينيا لأجل أن تستنبط منه كثيرا من العلامات"[٣].

وصف ببرتراند رسل هيوم بأنه أكثر ذكاء، وحدة ذهنه في التحليل أعظم من جون لوك، لذا توصـــل إلى نتيجة كارثة، هي أن لا تعلّمَ من التجربة والملاحظة، وليس هناك شيء من قبيل الاعتقاد المعقول، وهو يخلص إلى القول بأن الأغلاط في الدين خطيرة بيد أن أغلاط الفلسفة تثير الضحك[٤]، وهيوم كونه يقع في نفس الشَـــرَك الذي نقد فيه الأخلاق فيطالب بما يجب مما هو كائن وموجود، يجعله موضـوعا للعبث الفلسـفي الذي يبعث الضـحك، ولعله أدرك أن ما طالب به هو دور، وكأن الدور حتمية لفلاسفة العصـر الحديث، ولعل النقد اللاذع الذي وجهه ببرتراند رســـل لفلســـفة روســـو (١٧١٢-١٧٧٨م) (Jean-Jacques Rousseau) حين جعل الشـــعور والحياة البدائية هو الاختيار الصـــحيح لحياة

---

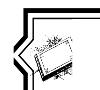
(١) روح الشرائع، مونتيسكو، ص٢٩.
(٢) روح الشرائع، مونتيسكو، ص ٤٧٣.
(٣) مقالات في الميتافيزيقيا والتصوف، كانط،ص٢٧٣.
(٤) انظر: تاريخ الفلسفة الغربية، ببرتراند رسل، الكتاب الثالث، ص٢٣٤



الناس بعيدا عن المدنية فقال رسل:"ثمة اعتراضان بصدد موضوعية ممارسة العقائد على انفعالات القلب؛ أحدهما أنه ليس ثمة سبب أيا كان لافتراض كون مثل هذه المعتقدات صحيحة، والأخر هو أن المعتقدات الناتجة ستكون خاصة ما دام القلب يقول أشياء مختلفة لناس مختلفين، فبعض البدائيين يحرضهم النور الطبيعي على أن واجبهم أن يأكلوا البشر"(١).

ويصرح كانط بخطورة كامنة في التفكير الفلسفي وعلاقته بثوابت المبادئ" الواجب علينا في الفلسفة العملية، وفي الفلسفة النظرية سواء بسواء، ألا نستسهل أخذ أمر على أنه لا برهان عليه وهو غير ذلك، على أنه يجوز لنا أن نستغني عن هذه المبادئ التي تتضمن من المصادرات ما هي أسس لسائر القضايا العملية كلها" (٢)

(١) تاريخ الفلسفة الغربية، الكتاب الثالث، ص٢٥٩.
(٢) مقالات في الميتافيزيقا والتصوف، ص٢٩٣.



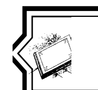
المطلب الثالث: تداعيات رأي هيوم.

أولا: صياغة مشكلة الأخلاق غير قابلة للحل.

تعد محاولة جون لوك في صياغة القاعدة الأخلاقية وارتباطها بأسماء الخير والشر، الفضيلة والرذيلة، من الموضوعات التي أثارت مشكلة ربما كانت مدخلا لهيوم، جعل لوك من أنواع العلاقات هو تطابق أفعال الإنسان الإرادية مع القاعدة الأخلاقية، وقد سعى لبيان إدراك المسميات، وبيّن أننا نفترض أن العرفان هو الاستعداد للاعتراف بالجميل ورده، لكنه توقف في مسألة هل الفعل جيد أم سيء، وهو يجعل سمة الخير والشر للفعل إنما تكون وفق تطابقهما مع قانون ما، بالنسبة للفضيلة والرذيلة جعله السمعة والرأي العام، ثم انصرف إلى أن القانون الفلسفي هو مقياس الفضيلة والرذيلة، وجعل القبول والرفض معيارا لذلك، وأن الثناء هو ما يجعل الفعل فضيلة، والذم ما يجعل الفعل رذيلة، وهو يقر باختلاف البلدان في ما تراه فضيلة ورذيلة، وينفي وجود ضامن للخير العام للجنس البشري، فلا يبقى إلا العرف والرأي السائد(١).

أدرك كانط خطورة النشاط الفلسفي في مشكلة مبادئ الأخلاق يقول:"توضح إلى أي حد بقي المفهوم الأولي للإلزام غير معروف، وكم نحن في ميدان الفلسفة العملية أبعد عن إثبات البيان واليقين الضروريين لبداهة المفاهيم الأساسية والمبادئ ، يجب أن نفعل ولا نفعل" (٢) بالتالي ذهب في تقصي غايات ووسائل ما يجب ومالا يجب، ليصل أن الواجب هو أن أسهم في أعظم كمال ممكن في

(١) انظر: الأعمال الفلسفية الكاملة جون لوك، ترجمة: عبد الكريم ناصيف،الصفحات ٤٤٨ وما بعدها.
(٢) مقالات في الميتافيزيقا والتصوف، ص٢٩٠.



جملته، أو أنه يجب علي أن أفعل طبقا لمشيئة الله، ويكون الفعل في ذاته ماهو ضرورة لا واقعا تحت شرط غاية، بالتالي فمثل هذه القاعدة العليا لكل إلزام ينبغي ألا يقوم عليها برهان أصلا(١).

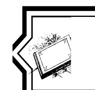
يقول هيوم:" كل استدلال احتمالي ليس إلا نوعا من الإحساس، ونحن نتبع ذوقنا واحساسنا في الفلسفة كما في الموسيقى والشعر، فأنا أقرر في شعوري أن هذه المجموعة لها النفوذ الأعلى"(٢)، يقول رسل"النتيجة النهائية لبحث هيوم فيما يظن أنه معرفة لا يلزم أن تكون راغبا فيها، فحاشية كتابه هي محاولة لإدخال المنهج التجريبي للاستدلال في الموضوعات الأخلاقية، وينهي بحثه بالاقتناع بأن الاعتقاد لا يكون معقولا مادام أننا لا نعرف شيئا" (٣)

يقول هيوم:" الطبيعة بضرورة مطلقة لا ضابط لها فقد هيأتنا لنتنفس ونشعر...حقيقة فرضي وهو أن جميع استدلالاتنا المنصبة على العلل والمعلولات مستمدة من لا شيء اللهم من العادة"(٤)، و" ليس هناك ثمة تبرير فلسفي للاعتقاد بأن الموضوعات توجد مستقلة عن الأدراك الإنساني، بالتالي الاعتقاد بأن لدينا إدراك مباشر لموضوعات موجودة ومستقلة عنا ومستمرة في وجودها في غياب إدراكنا، لهو اعتقاد رديء وفاسد"(٥).

وعندما تحدث عن أصل الانطباعات فهو يقول :" انه من المستحيل أن نقرر ما اذا كانت هذه الانطباعات تصدر مباشرة عن الموضوع، او أنها نتاج

---

(١) انظر: مقالات في الميتافيزيقا والتصوف، ص٢٩٢ وما بعدها بتصرف.
(٢) رسالة في الطبيعة البشرية، الكتاب الأول، ص ٦٣.
(٣) تاريخ الفلسفة الغربية، الكتاب الثالث، ص٢٢٢.
(٤) رسالة في الطبيعة البشرية، الكتاب الأول، ص١٩٨.
(٥) رسالة في الطبيعة البشرية، الكتاب الأول، ص٢٠١.

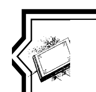


للقوى الخلاقة للذهن أي أنها مستمدة من خالق وجودنا"[١] ويتضمن هذا بدون شك أن تكون التفسيرات الواقعية والمثالية فروضا متساوية في إمكانية وجودها، وفي هذه مشكلة عدم توافق الاتجاهات على اتفاق مشترك وهيوم يدرك ذلك، فابتعد عن فكرة أن الإحساسات تصدر مباشرة عن الموضوعات وتبنى الموقف الديكارتي.

وصف هيوم فلسفة الأخلاق أنها فلسفة عويصة، في معرفة أصلها، وهو يجعل الفضيلة والرذيلة أهم أسباب العاطفة، بالتالي يطرح سؤلا إن كان التفريق بينهما يقوم على مبادئ طبيعية وأصيلة، أم أنها ناشئة من المصلحة والتربية، والأخلاق كلها عنده تقوم على أساس الألم أو السرور الذي ينشأ عنهما، والإحساس بالقدرة على التفريق لماذا نشعر بالسرور أو بالألم، ويرى أن فخر الإنسان بنفسه أو بعمله الكريم، كبرياء مقبول[٢]. وقد أدرك بعض الفلاسفة اعتياص مسالة الأخلاق في الفلسفة الحديثة، يقول كانط: "على الرغم من أني لم أعرف ما يكون الشوق، يمكن أن أقول بيقين أن كل شوق يفترض تمثلا لما يشتاق إليه، هذا التمثل هو توقع للمستقبل، وأن شعور اللذة يقترن به، وهو يدركه كل أحد في الوعي المباشر بالشوق، بالتالي يمكن أن نبلغ في النهاية تعريف الشوق، وفي ذلك مجازفة بالنهوض لهذا المشروع العسير"[٣].

انطلق هيوم من أن الفلاسفة زعموا أن الأخلاق تحتاج للبرهان-القياس الأرسطي- ولم يقدم أحدا منهم برهانا، ومع ذلك اعتبر هذا الزعم من المسلمات

(١) رسالة في الطبيعة البشرية، هيوم، الكتاب الأول ، ص١٠٥.
(٢) رسالة في الطبيعة البشرية، هيوم، ص ٣٠٧.
(٣) مقالات في الميتافيزيقيا والتصوف، كانط، ص٢٧١.

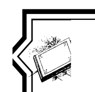


وعد من العلوم اليقينية كالجبر والهندسة، ثم انطلق من العلاقات التي تخضع للتيقن والبرهنة وهي: التشابه، التضاد، التدرج في الصفة، المناسبة بين الكم والعدد،[١] وهذه العلاقات هي ملائمة للمادة، كما تمت للفعل الإنساني، لكن الأخلاق لا تكمن في أي واحدة منها، فالأخلاق لا تكمن في أية علاقات هي موضوعات العلم، وإذا تعمقنا فيها لا تبرهن بيقينية مساوية على أنها لا تكمن في أي شيء فعلي حقيقي يمكن اكتشافه بواسطة الفهم[٢].

هذا المفهوم المضطرب ظهر تأثيره عند كانط، حيث يرى أن هذا الطرح أشبه بالتطلع للمستحيل، ففي بحث بعنوان تحقيق في بيان مبادئ اللاهوت الطبيعي والأخلاق، يقول: "المسالة المطروحة من النوع الذي إن حل بأحسن الطرق، لزم أن تغنم الفلسفة منه شكلا، أما المنهج الذي من شأنه أن ييسر في هذا الضرب من المعرفة أعلى يقين ممكن؛ إن اعتمد بنحو ثابت، فإن التقلب الأبدي للآراء والفرق المدرسية سيحل محله قاعدة مستقرة للمنهج العلمي جامعة للعقول المفكرة في مساعي موحدة"[٣]، ويقول في تحليل المفاهيم في الفلسفة وخاصة الميتافيزيقيا، "لا مناص من الوصول إلى مفاهيم غير قابلة للتحليل مثل التمثل والتساوق والتعاقب، كذلك أصناف المشاعر التي تعتري النفس البشرية والشعور بالجليل وبالحسن وبالقبح حيث تبقى دون معرفتها معرفة صحيحة، جاهلين بالدوافع التي تحرك طبيعتنا، وأن تعاريف اللذة والألم والشهوة والغضب

---

(١) انظر:رسالة في الطبيعة البشرية،الكتاب الأول، ص٣٢
(٢) رسالة في الطبيعة البشرية، هيوم، الكتاب الثالث ص٤٧٨.
(٣) مقالات في الميتافيزيقيا والتصوف، كانط، ص٢٦١.



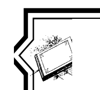
وغيرها كثير لم تقع تحت طائلة التحليل الكافي"[1]، وهو يجعل الخطأ في جعل معارف هذا الجنس بحيث تنحل إلى حد محدود من المفاهيم البسـيطة، هو خطأ الطبيعيين القدماء حين أرجعوا كل مادة من الطبيعة إلى العناصر الأربعة.

ثانيا: صناعة الصراع الفلسفي.

جزء رئيس من الثقافة الغربية وفلسـفتها الأكاديمية؛ هي نتاج ثقافة كانت الفلسفة فيها تؤلف شكلا رئيسيا من النشاط الاجتماعي وهي الفلسفة التي فشلت في حل مسائلها [2] السجال الفلسفي، أو السؤال المفتوح، هل هو نتيجة حتمية، أم أنه مطلب؟ خاصـة في موضـوعات يصـعب الجزم فيها بعد أن جردت من أصـولها ومن ذلك الأخلاق، وهل يرجع مصـدرها للعقل أم الشـعور أو العاطفة، ولعل الناظر في حال هذا الصـراع يجده أقرب إلى المفتعل"إن ما يعنى به هيوم هو المعرفة غير اليقينية، مثل تلك التي يتحصـل عليها من المعطيات التجريبية بواسطة استدلالات غير برهانية، تحليل مثل هذه المعرفة الاحتمالية قاد هيوم إلى بعض النتائج الشكية، وهي تتساوى من حيث صعوبة دحضها أو قبولها، والنتيجة هي تحد الفلاسفة وهو تحد مابرح لم يواجه مواجهة كافية" [3]، ولذا لجأ كانط إلى تقرير تحت عنوان أن المبادي الأولى للاهوت الطبيعي والأخلاق مستحقة لأعلى درجات البيان الفلسـفي :"أنه من التطويل المفرط أن نفحص النظريات الفلسـفية المتداولة بالفعل في هذا الغرض" [4]

---

(١) مقالات في الميتافيزيقيا والتصوف، كانط،٢٦٥.
(٢) انظر: بعد الفضيلة، السدير،ص٩٧.
(٣) تاريخ الفلسفة الغربية، الكتاب الثالث،ص ٢٢٤. بتصرف.
(٤) مقالات في الميتافيزيقا والتصوف،ص١٨٨.



وقد تنبه رسـل إلى ثغرة عميقة في فتوى هيوم، وهي إغفال الإبهام في فرضـيته في الانطباعات والإدراكات؛ فالإبهام يختلف عن التعميم وإن تقاطع مع بعض خصـائصـه، وهيوم لم يلحظ ذلك مما أوقعه في صـعوبات غير ضـرورية ومثاله حين"أرى وردة من لون معين، ثم بعد ذلك استرجع صـورة لها فإن الصـورة تفتقر إلى الدقة حيث ثمة ظلالا للون عديدة متماثلة"(١)، وجود أخطاء مثل هذه تجعل الباحث يطرح سؤلا هل افتعلها هيوم لغاية.

ومن جانب ثاني إثارة فشل الفلسفة بعد إقصـاء الدين، حيث وجد في عجز الفلاسـفة السـابقين عن تفسـير العلاقة بين الواقعة وبين القيمة، صـرح هيوم بأن الإجابة عن السـؤال حول أصـل الأخلاق، ومفهوم الخير والشـر سـيبقى لفترات متطاولة، وأن الأيام كفيلة بتحديد من يحمل الحقيقة واليقين، يقول:"أن المنهج الحالي للفلسـفة سـيكتسـب قوة جديدة كلما تقدم أكثر، وأن عملياتنا الفكرية بخصوص الأخلاق سيتم تأييدها"(٢).

لقد أصبح الشك مقررا في فلسفته بل في كل معرفة يقول هيوم:" هذا الشك بالنسـبة إلى العقل والحواس معا هو داء لا يمكن البتة البرء منه براءً نهائيا، بل هو يعاودنا كل لحظة وإن كنا نطرده بعيدا عنا...الإهمال وعدم الاهتمام يمكنهما وحدهما أن يزودانا بدواء، ولهذا السـبب أنا أركن لهما"(٣)، يقول رسـل:"هيوم لا يجعل ثمة داع لدراسـة الفلسـفة إلا إذا كانت من باب تمضـية الوقت، وفي جميع أحداث الحياة ما برح ينبغي لنا أن نحافظ على شكنا...بل وإن كنا فلاسفة فينبغي

---

(١) تاريخ الفلسفة الغربية، الكتاب الثالث، ص٢٢٢.
(٢) رسالة في الطبيعة البشرية، هيوم، ص٤٦٧.
(٣) رسالة في الطبيعة البشرية، الكتاب الأول، ص ٢٠٢.

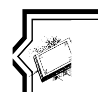


أن يكون ذلك على أساس مبادئ شكية وعن ميل نشعر به" [١] ، وهي فلسفة توصف أنها"شكية لا جد فيها ما دام لا يستطيع أن يحافظ عليها في الحياة العملية، وكانت نتيجتها أنها تشل كل مجهود لإثبات أن خطا من خطوط الفعل أفضل من الأخر "[٢].

هدم هيوم الأخلاق، وسعى كانط لتقويض الدين: "أن يوجد إله هو أمر يستدل اللاهوتي الكتابي بالرجوع إلى ما قاله الكتاب عنه، لكن أن يتحدث الله بذاته بواسطة الكتاب فذلك أمر لا يقدر اللاهوتي الكتابي بصفته تلك على الاستدلال عليه ولا ينبغي له ذلك، حيث أن هذا الامر من اختصاص كلية الفلسفة... فلذلك يقيمه على أنه من أمر من أمور الإيمان على أساس الشعور بألوهيته، شعورا لا سبيل الى الاستدلال عليه ولا الى تفسيره" [٣] ، ويقول:" اللاهوتي الكتابي عارف بالنقل لأجل الإيمان الكنسي، واللاهوتي العقلي عارف بالعقل لأجل الإيمان الديني، من ثم من أجل الإيمان المستند إلى قوانين باطنية تتنامى بناء على ما لكل أمرئ من عقل"[٤]، وهو يذهب إلى أن الدين وكذلك الأخلاق تخضع للتأويل "الاعتقادات النظرية المصرح بأنها مقدسة، لكنها متجاوزة لكل مفهوم عقلي بما في ذلك المفهوم الأخلاقي يجوز تأويلها لفائدة العقل، أم تلك التي تتضمن قضايا متعارضة مع العقل العملي فيجب لها ذلك"[٥].

---

(١) رسالة في الطبيعة البشرية، الكتاب الأول، ص٢٣١.
(٢) تاريخ الفلسفة الغربية، بيرتراند رسل، الكتاب الثالث،ص٢٣٤.
(٣) نزاع الكليات، كانط، ص ٧٤.
(٤) نزاع الكليات، كانط، ص ٩١.
(٥) نزاع الكليات، كانط،ص ٩٥.



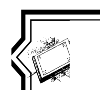
يقول ببرتراند رسل" الحجج القديمة كانت على الأقل حججا أمينة، فإذا كانت سـليمة فإنها تثبت ما تسـعى لإثباته، وإن كانت باطلة فإنها مفتوحة لأي ناقد ليثبت بطلانها، بيد أن لاهوت القلب الجديد يستغني عن الحجة"(١)

وبقدر ما كان هيوم يفرح بالقضـايا والشـك الريبي، ويجعله ينشـأ من طبيعة التفكير العميق، وعجز العقل عن حل مشاكله علاجه عدم الاهتمام (٢).

لقد فزع كانط من وجود المشـكلات غير قابلة للحل، وأنها مسـألة مهمة في الصـراع الفلسـفي، فالقضـايا التي لا برهان عليها هي الأسـاس في علوم الفلسـفة، لكن البحث عن الحقائق الأولى التي لا برهان عليها هي مهمة من أخطر مهمات الفلسفة العالية، والكشوفات لا نهاية لها، فالمعرفة تتوسع، وهو يبرر ذلك بأن "في الفلسـفة يكون مفهوم الشـيء الذي يلزم تعريفه معطى أوليّ، مدركا إدراكا مباشـرا وسـابقا، أن يصـلح لحكم أولي لا برهان عليه، ولأني لسـت حائزا بوضـوح على مفهوم الشيء بأكمله وأني أسعى في طلبه، كان هذا الحكم غير قابل للبرهان"(٣)، ويذهب رسل حول هذا الشك المستشري في الفلسفة الحديثة، إلى أن كتاب كانط نقد العقل النظري الخـالص يرد على هيوم، بل كـانط وهيغل يمثلون نمطاً من النزعة العقلية لو أفترض أنه سـابق على النمط الذي يمثله هيوم، يمكن دحضـه بحجج هيوم(٤).

---

(١) تاريخ الفلسفة الغربية، الكتاب الثالث، ص٢٦٠.
(٢) انظر:رسالة في الطبيعة البشرية، الكتاب الأول ، ص ٢٣١.
(٣) مقالات في الميتافيزيقيا والتصوف، كانط،ص ٢٦٦.
(٤) انظر:تاريخ الفلسفة الغربية، بيرتراند رسل، الكتاب الثالث، ص٢٣٥.



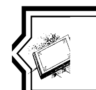
ثالثا: السياق المعاصر لفتوى هيوم.

يمكن أن نصــف فتوى هيوم أنها أثمرت بفلســفات جديدة، فماهية الفضــيلة والرذيلة تقع إما في بعض علاقات الأشـياء، أو يجب أن تكون شـيئا فعليا حقيقيا نكتشفه بعملياتنا الفكرية، هذه البذرة التي أخصبت في الوجودية لنشؤ هذا الصراع في موســـوعــة ســـورين كيركيغورد(Søren Kierkegaard) (١٨١٣-١٨٥٥)الفلسفية في كتابه إما أو.

وفي الوقت الحـالي يظهر الأثر من خلال دعوة معـاصـــرة لإقرار القـانون الطبيعي في مواجهـة القـانون الإلهي، وأن الحـل الـذي يقـدمـه منظرو القـانون الطبيعي الجدد هو الأقل إشـــكالية إذا رغب المرء في تنفيذ ضـــرورة أخلاقية، وتوجيهية، وغير نسبية، ومحددة بما يرتبط بالصالح العام من فرضية هيوم في(ما هو كائن وما يجب) التي كونت مشـــكلة في الأخلاق من أجل تقييم مدى تأثر نظريـة القانون الطبيعي، فظهرت تطلعات تمثل" رؤيـة آلان جويرث فيما يتعلق بنوع الواجب الذي له صـــلة بالأخلاق بشـــكل عام، فعند النظر في أفكاره التي تتعلق بنظرية القانون الطبيعي على وجه الخصــوص في مقالته "تم حل مشــكلة مايجب"، أثبت جويرث أن علماء الأخلاق لا يحتاجون إلى الاهتمام بمشـــكلة اشــتقاق أي نوع من الواجب، ولكن بمشــكلة اشــتقاق واجب أخلاقي، وتوجيهي، ومسـاواة، ويؤكد أنها أفكار أخلاقية، بمعنى أنها تأخذ في الاعتبار بشـكل إيجابي مصالح الأشخاص الآخرين خاصة فيما يتعلق توزيع ما يعتبر رفاهية أساسية"(١).

---

(١) Stilley, Shalina, "Natural Law Theory and the "Is"--"Ought" Problem: A Critique of Four Solutions" *Dissertations,* Marquette University, ٢٠١٠.



كما أثيرت حول هيوم منازعات واتهامات معاصـــرة، منها قبول اللاأدرية في المعرفة، أو دعوة ضــــمنية للمغالطة الطبيعية ويذهب أحد الباحثين الى أن فتوى هيوم التي يثـار حولهـا هـذا الخلاف، وجميع أطراف هـذا النزاع كـانوا يرتكبون الخطأ نفسه، فهي لا تدعم اللأدرية، ولا فيها مغالطة طبيعية(١).

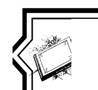
وقد ســـعى بعض الباحثين لتبرير عبثية هيوم أن المقصــــد منها جانبها المنطقي فقط، وأن هيوم لم يكن ينكر أن الأخلاق يمكن اســـتنتاجها من مقدمات غير أخلاقية، لقد كان ينكر فقط وجود حجج صحيحة منطقيًا، وأن هيوم لا يعتقد أنه يجب عليه أن يجادل في عدم القدرة على التصـور الواضـح لاستنتاجات مما هو كائن لما ينبغي/يجب، فهو مما يسلم به، إذا كان يشير إلى العلاقة المنطقية، فالمســـالة تقوم على نتيجة غير منطقية، ففي قياس منطقي صـــحيح لا تكون النتيجة من خارج المقدمات، بل ضمنية فيها، فإذا ظهرت "يجب" في الحجة، ولم تكن في المقدمات المنطقية، فإن الاستنتاج لا يمكن أن يكون صحيحًا منطقيًا، لا يمكنك اســـتنتاج "يجب" من "موجود" عن طريق المنطق وحده (٢)، وفي مقالة الأســماء الإلهية شــق الاكويني طريقا منطقيا عســيرا بين متطرفين هما مذهب اللاأدرية ومذهب المشبهة (٣)، الاكويني من دعاة المذهب الطبيعي وهو يقربه من المســـيحية كثيرا، ويقترب هيوم من المـذهـب الطبيعي حتى أتهم بـالمغـالطـة

---

(١) Charles Pigden, Hume on Is and Ought, Issue ٨٣, Philosophy Now, ٢٠١٠.

(٢) Charles Pigden, Hume on Is and Ought, Issue ٨٣, Philosophy Now, ٢٠١٠.

(٣) الموسوعة الفلسفية المختصرة، ص٧٥.

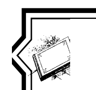


الطبيعية، والتبرير لذلك أن الاكويني استخدم منطق أرسطو لإثبات وجود الإله، والأخلاق، لذا جاء نقد هيوم على الأخلاق أنها لا تستنتج من العقل.

رأي هيوم أثار صراعا فلسفيا مستمر إلى وقتنا الحالي، لقد عجزت الفرضيات الفلسفية عن أن تجد أصلا للأخلاق فلا هو العقل ولا هو العاطفة، ومع إقصاء الدين، والتشكيك في مصداقيته، جاءت الأخلاق مواجهة صلدة في وجه الفلسفة، هذا العجز هو ما دفع بهيوم لإثارة صراع فلسفي، فالجميع يجادل في فتواه قديما وحديثا، ومدى قربها من المذهب الطبيعي، وبعدها عن المذهب العقلي، وعلاقتها بفلسفة هوبز، أو بفلسفة روسو الرومانسية، لكن لا أحد يطرح سؤلا عن الأخلاق، فهل كانت تلك محاولة ماكرة من هيوم لصرف الفكر عنها، فهي بجد مصدر حيرة وعجز الفلاسفة، يقول رسل:" فلسفة هيوم سواء كانت حقا أم باطلا، تمثل إفلاس حصافة القرن الثامن عشر"(١)

لقد افتخر هيوم بأن رأيه ستقوض الأنظمة القديمة والمستخدمة في وقته(٢)، وهو تصريح بأن هدف رأيه الأنظمة واستدلالاتها، فقد كانت الفرضيات في احتمال اشتقاق حقائق الأخلاق من مقدمات بديهية ولكنها غير أخلاقية، والذي اقترحه فلاسفة مثل هوبز وسبينوزا ولوك، فجاءت فتوى هيوم لتمنع هذا الخيار، فإذا لم تكن هناك مقدمات أخلاقية بديهية، يقوم عليها القياس البرهاني، وفي نفس الأمر وضع هيوم حجته "لا تستطيع استنباط ادعاءات أخلاقية منطقية من ادعاءات غير أخلاقية" مثل الادعاءات حول وجود إله، أو الملاحظات المتعلقة

(١) تاريخ الفلسفة الغربية، الكتاب الثالث، ص٢٣٣.
(٢) رسالة في الطبيعة البشرية، الكتاب الثالث، ص ٤٨٠.



بالشؤون الإنسانية، فإن الأخلاق لا يمكن إثباتها، والدين الكنسي قد نقد وأقصي سابقا، و تم تخريب الأنظمة المستخدمة.

المطلب الرابع: الرؤية الإسلامية لمفهوم الأخلاق في ما هو كائن وما يجب.

جاءت الرؤية الإسلامية بحفظ الدين والأخلاق، وصيانة العقل البشري من العبث، وتركيز القرار، وبيان أسس الأخلاق، في مواجهة أي طرح لا يتسق مع العقل الصريح، ولا يستند إلى قانون أو نص صحيح.

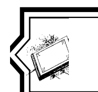
أولا: فطرية الأخلاق في الإسلام.

لفظ الأخلاق يطلق على جميع الأفعال الصادرة عن النفس محمودة كانت أو مذمومة، فإذا أطلق على الأفعال المحمودة دل على الأدب، ومن منظور اجتماعي تمثل الأخلاق "عواطف الناس وعاداتهم وتقاليدهم الذائعة بلغة المثل الأعلى، والغاية القصوى" (١).

وصف الله سبحانه وتعالى رسوله عليه الصلاة والسلام قال تعالى: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيم ﴾ (القلم: ٤) قال ابن كثير في تفسيره "عن ابن عباس وإنك لعلى دين عظيم وهو الإسلام...وسئلت عائشة عن خلق رسول الله صلى الله عليه وسلم قالت: كان خلقه القرآن" (٢)، وقال الشوكاني " وقيل هو رفقه بأمته وإكرامه إياهم، وقيل المعنى: إنك على طبع كريم"(٣)، وعليه فإن وصف الخلق الفاضل بإطلاق لا يكون إلا لأنبياء الله تعالى ورسله عليهم الصلاة والسلام فهم

---

(١) انظر المعجم الفلسفي، جميل صليبا ، ٤٩/١- وانظر: كتاب الأخلاق، أحمد أمين، ص ٢٢
(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٤٢٥/٤.
(٣) فتح القدير، الشوكاني، ٢٦٧/٥.



صفوة البشر، أما من هم دونهم فإن الفاضل من غلبت فضائله رذائله وملك قهر الرذيلة.

والدين هو مصدر الأخلاق، إذ لم يترك الله سبحانه أمة من الأمم إلا وقد بعث لها رسولاً منهم يدلهم على الخير وينهاهم عن الشر قال تعالى:﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَيَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡبَغۡيِۚ يَعِظُكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ﴾(النحل:٩٠)، قال ابن كثير "يأمر عباده بالعدل وهو القسط والموازنة، ويندب إلى الإحسان...والإحسان أن تكون سريرته أحسن من علانيته، والفحشاء والمنكر أن تكون علانيته أحسن من سريرته... والبغي هو العدوان على الناس" [١].

والآيات كثيرة في القرآن الكريم، كقوله تعالى:﴿ وَلۡتَكُن مِّنكُمۡ أُمَّةٞ يَدۡعُونَ إِلَى ٱلۡخَيۡرِ وَيَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴾ (آل عمران: ١٠٤) وقال تعالى:﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهۡلِكَ ٱلۡقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبۡعَثَ فِيٓ أُمِّهَا رَسُولٗا يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِنَاۚ وَمَا كُنَّا مُهۡلِكِي ٱلۡقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهۡلُهَا ظَٰلِمُونَ ﴾ (القصص:٥٩).

كما بين الدين الإسلامي فطرية الأخلاق في النفس الإنسانية، قال تعالى﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا (٧)فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾(الشمس:٧، ٨) قال ابن كثير:" أي خلقها سوية مستقيمة على الفطرة القويمة... وقوله (فألهمها فجورها وتقواها)بين لها ما ينبغي لها أن تأتي أو تذر من خير أو شرّ أو طاعة، أو

---

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٦٠٤/٢.

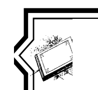


معصية، قال ابن عباس: بَيَّنَ لها الخير والشر" [١] ، فقد فطر الله سبحانه وتعالى خلقه على محبة العدل وأهله وبغض الظلم وأهله، وهذه المحبة التي هي الفطرة كون المعنى حسناً، وهذا البغض هو المعنى بكونه قبيحاً، وهذا في مجمله يمثل إجماعاً بشريا إذ لو لم يكن لهذه القضايا مبدأ في قوى الإنسان لم تشتهر في جميع الأمم ... فلابد أن يكون له موجبا في الفطرة المشتركة وبالتالي فهو من لوازم الإنسانية[٢].

وقد اضطرب الفلاسفة في الأخلاق؛ فقد تنازعتها المذاهب وفقاً للاتجاه الفلسفي الذي يعتنقه الفيلسوف، بالتالي تحولت ساحة الفلسفة إلى مصطرع بين المذاهب يسوده النقد الشديد، لا بحثا عن حقيقة، ولا هداية لضال، بل إشغال العقل البشري بما لا طائل منه، وليس من الغريب أن يوصف هذا الصراع في الأخلاق بين الفلاسفة، مبعثه غايات معلنة كما هو عند هيوم، أو غير معلنة والفلاسفة يصرحون بذلك: "الغايات الأخلاقية عبارة عن تعبيرات عن إرادات الأفراد، وصراعها ما هو إلا صراع بين إرادات" [٣]، ويقول نتشه (١٨٤٤-١٩٠٠) عن الفلسفة الأخلاقية عند إيمانويل كانط (١٧٢٤-١٨٠٤) " لا نمنح مجموع الفلاسفة سوى نظرة يمتزج فيها الحذر بالتهكم ...هوى شاذ وفي الأغلب أمنية عزيزة...مدافعون ماكرن عن أحكامهم المسبقة...بعيدون عن الذوق الرفيع"[٤].

---

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير،٥٥١/٤.
(٢) انظر الرد على المنطقيين، ابن تيمية، تحقيق محمد حسن إسماعيل، الصفحات: ٣٥٣ – ٣٥٤ – ٣٥٥.
(٣) الجانب الديني للفلسفة – جوزايا روسي، ترجمة أحمد الأنصاري، ص ١١٧
(٤) الخير والشر، نيتشه، ترجمة حسان بورقية، ص ١٨، ١٩ وما بعدها.



ثانيا: صياغة الخطاب الإسلامي في ما هو واجب.

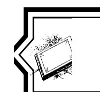
جاء خطاب القرآن موجها للمسلم بشمولية تامة للحياة، قال تعالى:﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٢) لَا شَرِيكَ لَهُۥ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾(الانعام:١٦٢-١٦٣)، و"الدين كله يرجع إلى فعل المأمورات وترك المحرمات والتوقف عن الشبهات"[١]، ومما يثير الشبهات إثارة الشكوك، وأمراض سلوك الناس، وتضييع الأخلاق بإرجاعها للشعور والعاطفة الجزئية.

إن تصدر الموقف في توجيه الناس يتطلب حماية المجتمع وصيانته، لا إثارة الشكوك والبلبلة، قال رسول الله ﷺ لمعاذ بن جبل رضي الله عنه: (اتق الله حيثما كنت، واتبع السيئة الحسنة تمحها، وخالق الناس بخلق حسن)[٢]، "فإنه كان قد بعثه إلى اليمن معلماً لهم ومفقهاً وقاضياً، ومن كان كذلك فإنه يحتاج إلى مخالقة الناس بخلق حسن...وكثيراً ما يغلب على من يغتني بالقيام بحقوق الله، إهمال حقوق العباد أو التقصير فيها" [٣].

وإن من الواجب الاعتراف بأن في المجتمع المسلم من يغفل جانب الأخلاق لغفلته بشمولية الدين لجميع مناحي الحياة، ويقصر همته على القيام بحق الله تعالى، وذلك إما جهلاً بصلة الأخلاق بالإيمان والعقيدة، أو تهاوناً بحقوق الناس[٤]، ولذلك "بعث الله تعالى رسله ليخرجوا الناس من الظلمات إلى النور،

---

(١) جامع العلوم والحكم، ابن رجب الحنبلي، ص١٠.
(٢) سنن الترمذي، باب ما جاء في معاشرة الناس،حدبث رقم (١٩٨٧).
(٣) جامع العلوم والحكم، ابن رجب، ص١٧١، بتصرف يسير.
(٤) انظر:صلة الأخلاق بالعقيدة والإيمان، د. سليمان الغصن، ص١٢بتصرف.



فمن أجابهم خرج إلى الفضاء والنور والضياء، ومن لم يجبهم بقي في الضيق والظلمة التي خُلِق فيها، وهي ظلمة الطبع، وظلمة الجهل، وظلمة الهوى، وظلمة الغفلة عن نفسه، وعن كمالها وعما تسعد به في معاشها ومعادها"(١)، وهذه الظلمات إما أن يقع فيها الإنسان بسبب غفلته، وإما أن يتقصد وقوعه فيها، بل يعمل على حمل الناس عليها متمثلة في ظلمة الهوى.

وفي قوله تعالى:﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ ۚ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ﴾(الحجرات:٧) " اعلموا أن بين أظهركم رسول الله فعظموه... وتأدبوا معه وانقادوا لأمره فإنه أعلم بمصالحكم وأشفق عليكم، ورأيه فيكم أتم من رأيكم أنفسكم...لو أطاعكم في جميع ما تختارونه لأدى ذلك إلى عنتكم" (٢) فتوصيف أمر أنه خير وآخر أنه شر؛ لا يرجع فيه للذائقة البشرية بإطلاق، فالعقل يحسن ويقبح وما فيه من تحسين وتقبيح صحيحين مرتبط بفطرية كليات الأخلاق وأنها من البدهيات التي يذعن الناس لها، و منها ما هو من بقاء علوم الأنبياء بينهم لتواترها من بداية البشرية بآدم عليه السلام، وهي مع ذلك يطالها ما يطال التوحيد في قلوب الناس وعلو الأدران عليها فتنطمس، قال رسول ﷺ في خطبته: "ألا إن ربي أمرني أن أعلمكم ما جهلتم مما علمني، يومي هذا، كل مال نحلته عبدا، حلال، وإني خلقت عبادي حنفاء كلهم، وإنهم أتتهم الشياطين فاحتالتهم عن دينهم، وحرمت عليهم ما أحللت لهم، وأمرتهم أن يشركوا

---

(١) إرشاد الثقات إلى اتفاق الشرائع على التوحيد والمعاد والنبوات، الإمام الشوكاني، ص٧٠.
(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٢٢٥/٤.



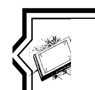
بي ما لم أنزل به ســـلطانا)[١] قال النووي رحمه الله في شـــرحه: "حنفاء أي مســتقيمين منيبين لقبول الهداية ، وقوله تعالى: (وإنهم أتتهم الشـياطين فاجتالتهم عن دينهم) أي اســـتخفوهم فذهبوا بهم وأزالوهم عما كانوا عليه وجالوا معهم في الباطل"[٢].

وأن أفعال الناس هي أمور وجودية، والإنســـان إما أن يفعل مأمور به، أو ترك منهي عنه، والترك أمر وجودي [٣]، مرتبط ومقيد بخطاب ثابت،وليس مرتبط بنفس متقلبة وفق هواها، قال تعالى: ﴿ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا ﴾ (الكهف:٢٨) " (أمره فرطا) أي أعماله وأفعاله ســـفه وتفريط وضياع" [٤].

وترتبط الأخلاق بأفعال الناس، وما يترتب عليها من لذة وألم، فأفعال العباد مقيدة بنية وعمل يرغب به أن ينال الثواب ويتقي العقاب، وهذه هي اللذة الحقيقية قال رسـول الله ﷺ : (ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان: من كان الله ورسـوله أحب إليه مما ســـواهما، ومن كان يحب المرء لا يحبه إلا لله، ومن كان يكره أن يرجع في الكفر بعد إذ أنقذه الله منه كما يكره أن يلقى في النار) [٥] قال ابن حجر رحمه الله:"شـبه رغبة المؤمن في الإيمان بشـيء حلو... والمراد بالحب هنا الحب

---

(١) صحيح مسلم، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب الصفات التي يعرف بها في الدنيا أهل الجنة وأهل النار، حديث رقم (٢٨٦٥).
(٢) المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج ، النووي،١٩٧/١٧.
(٣) انظر: الحسنة والسيئة، ابن تيمية، ٦٣.
(٤) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٣/ ٨٦.
(٥) صحيح البخاري ، كتاب الايمان باب ٩، حديث رقم(١٦)، ضمن فتح الباري، ابن حجر، ٨٢/١.(ضمن فتح الباري)



العقلي الذي هو إثار ما يقتضي العقل السليم رجحانه، وإن كان على خلاف هوى النفس... والإلتذاذ العقلي إدراك ما هو كمال وخير من حيث هو كذلك" (١) ، ولذلك متابعة هوى النفس يوقع الإنسان في السوء" منشأ الأعمال السيئة من شر النفس، فشـــر النفس يولد الأعمال الســـيئة، ومن الأعمال التي تحدث عن تلك الصفة" (٢).

إن تعمد تضـــليل الناس وتشـــبيه المبادئ مزلة خطيرة حذر الدين منها قال رسول الله ﷺ : (من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت) (٣) قال ابن حجر: "القول كله إما خير وإما شر، وإما آيل إلى أحدهما...اشتمل الحديث على أمور ثلاثة تجمع مكارم الأخلاق الفعلية والقولية... وحاصله من كان حامل الإيمان فهو متصف بالشفقة على خلق الله، قولا بالخير وسكوتا عن الشر، وفعلاً لما ينفع أو تركاً لما يضر"(٤).

---

(١) فتح الباري، ابن حجر، ١/ ٨٣.
(٢) بدائع الفوائد، ابن القيم، ٢/ ٢٣٩.
(٣) صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذ جاره، حديث رقم ٦٠١٨.(ضمن فتح الباري)
(٤) فتح الباري شرح صحيح البخاري، تحقيق: عبد العزيز بن باز، ١٠/ ٥٤٧.



ثالثا: مفهوم الخير والشر.

خلق الله تعالى هذا العالم بما فيه من خير وشر لحكمة، وهو سبحانه لا يخلق شراً محضاً، والأمور العامة الكلية لا تكون إلا خيراً ومصلحةً للعباد، ولقد اضطرب الناس في التفريق بين الشر الخاص والعام وبين الشر الإضافي والشر المطلق، والمقصود أن الحسنة مضافة لله تعالى من كل وجه والسيئة مضافة إليه لأنه خلقها لحكمة، كما خلق الحسنة[١]، فكل شر في هذا العالم هو أمر نسبي إضافي، فهو خير من جهة تعلق فعل الرب تعالى وتكوينه به، وشر من جهة نسبته إلى من هو شر في حقه، الحكم بقتل الصائل على الناس في جمائهم وأموالهم، ففي عقوبة هذا الصائل خير محض وحكمة وعدل وإحسان للناس، وهي شر بالنسبة للصائل نفسه [٢].

قال تعالى﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَٰذِهِ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَٰذِهِ مِنْ عِندِكَ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ اللَّهِ فَمَالِ هَٰؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا *مَّا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾(النساء:٧٨-٧٩)، "فالجميع بقضاء الله وقدره وهو نافذ في البر والفاجر والمؤمن والكافر، قال ابن عباس قوله(كل من عند الله) أي الحسنة والسيئة... فالحسنة بفضل الله ومنه، والسيئة عقوبة لك يا ابن آدم بذنبك"[٣]، والخير في هذا العالم يضاف لله تعالى، ولا ينسب إليه تعالى الشر المحض، قال رسول الله ﷺ

(١) انظر: الحسنة والسيئة، ابن تيمة،تحقيق: عثمان الخشت، الصفحات:٥٦- ٦٢.
(٢) انظر:بدائع الفوائد، ابن القيم، ٢/ ٢٤٢.
(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ١/ ٥٤١.



: (والخير بين يديك، والشـر ليس إليك) (١)،"وما يحدث في هذا العالم من شـرور، فخلقه تعالى لها هو لحكمة، وإن كان فيه شـر لبعض الناس فهو شـر جزئي، وليس شـرا كلياً بل الأمور العامة الكلية لا تكون إلا خيراً ومصـلحة للعباد، كالمطر العام، وكإرسال الرسل"(٢)

تمثل الأخلاق في دراسة بناء القيم الاجتماعية في المجتمعات، بما يسود من مفاهيم تحدد الحسـن والقبيح، أو المقبول والمرذول، وما يؤثر فيها وقد يغيرها، إذ لا يمكن أن يغيب ضابط التفريق، والشعوب تنهض في وجود ضابط سواء كان إلهي، أو قانون سياسي، أو عرف سائد، والإنسان الجزئي يفرق بين الأخلاق حسنها وسيئها، فيفرق بينها إما بالفرق الشرعي فيفرق بين ما يحبه الله ويرضه، وبين ما يبغضه ويسخطه، أو يفرق بالفرق الطبعي بهواه وشهواته (٣)، والأهواء والشهوات متعددة بتعدد أصحابها وبواعثها وغاياتها الخاصة، مما يؤول إلى تعدد في المفاهيم المستجدة، بل المفتعلة في الموضوع الواحد.

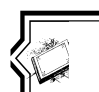
إن الأخلاق في ذاتها ثابتة لا تتغير بتغير الزمان والمكان، ولا يمكن أن يكون مبعثها سلوك فردي، أو عادة مجتمع، والواقع يشهد بأن لكل حضـارة من المنطلقات والدوافع والغايات والضوابط والأهداف التي تشكل مبادئ أخلاقية تسـود مجتمعهم؛ فهذا أمر مختلف عن أن الأخلاق في جنسـها ثابتة ومقبولة عند عموم البشـر، فقد " العقل أودع الله تعالى فيه أن يعلم الإنسـان ما ينفعه ويفعله، ويعلم ما يضره ويتركه، وهذا في مجمله يمثل إجماعاً بشريا إذ لو لم يكن

(١) سنن الترمذي، باب ما جاء في الدعاء عند افتتاح الصلاة بالليل، حديث رقم(٣٤٢٢.)
(٢) الحسنة والسيئة، ابن تيمية، ص٥٤.
(٣) ينظر الحسنة السيئة-ابن تيمية- ص ١٢٥.



لهذه القضـــايا مبدأ في قوى الإنســـان لم تشـــتهر في جميع الأمم "[1]، و"علم الاخلاق يدرس السلوك الإنساني من حيث الدوافع والبواعث، والغايات، ووسائل الالزام والالتزام الخلقي، والواجب والضـمير" [2] إلا أن تمكن الأخلاق من نفوس الناس يقوى ويضعف تبعا لقوة الإيمان وحياة الضمير.

(١) الرد على المنطقيين، ابن تيمية، تحقيق محمد حسن إسماعيل، ص ٣٥٣ ـ ٣٥٤ ـ ٣٥٥
(٢) الفكر الأخلاقي دراسة مقارنة، د. محمد عبد الله الشرقاوي، ص١٨.



النتائج.

وبعد ، فالحمد لله تعالى كما يليق بجلاله وعظيم سلطانه، على تمام هذا البحث، والذي خرج بعدد من النتائج التالية:

- تعد الأخلاق من الموضوعات التي مكنت المؤمنين من مواجهة تيار الإلحاد في العالم.
- من أوجه النقد الديني في العصر الحديث أنكار القيم والفضائل النسكية و الدينية، تمهيدا لمواجهة مفهوم الأخلاق عامة.
- موقف هيوم الحقيقي في فتواه هو وضع مشكلة دون حل، وأثر ذلك على الدين والأخلاق، والصراع فلسفي.
- استخدم الفلاسفة اللغة وأثرها في سجالهم الفلسفي، وظهر ذلك بسبب ترجمة مصطلح الأخلاق من اليونانية إلى اللاتينية ثم إلى اللغات الأوروبية.
- الرؤية الإسلامية لمفهوم الأخلاق، والخير والشر، واضحة بذاتها، وهي تفتح مجال الفهم والقبول، وتحقق للإنسان سعادته في الدنيا والآخرة.

التوصيات.

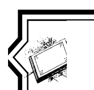
- دراسة أثر فتوى هيوم في الأخلاق في تبرير سلوك الدول المعاصرة.
- دراسة الفروق بين فلسفة روسو الرومانسية وفلسفة هيوم في الأخلاق.

فهرس المصادر والمراجع

- إرشاد الثقات إلى اتفاق الشرائع على التوحيد والمعاد والنبوات، الإمام الشوكاني، دار الكتب العلمية، ط١، بيروت،١٤٠٤.
- أعلام الفكر اللغوي، روي هاريس وآخرون، ترجمة: د. أحمد الكلابي، دار الكتاب الجديد المتحدة، ط١، بيروت، ٢٠٠٤.
- الأعمال الفلسفية الكاملة، جون لوك، ترجمة: عبد الكريم ناصيف، دار الفرقد، ط١، دمشق، ٢٠١٩.
- بدائع الفوائد، ابن قيم الجوزية، مراجعة: محمد عبد القادر الفاضلي و د. أحمد أبو الشباب، المكتبة العصرية، بيروت، ٢٠٠٣.
- بعد الفضيلة بحث في النظرية الأخلاقية، السدير ماكنتاير، ترجمة: حيدر اسماعيل، مركز دراسات الوحدة العربية، ط١، بيروت، ٢٠١٣.
- تاريخ الفلسفة الحديثة، وليم رايت، ترجمة: محمود سيد أحمد، التنوير، ط١، بيروت، ٢٠١٠.
- تاريخ الفلسفة الغربية، ببرتراند رسل، ترجمة: د. محمد فتحي الشنيطي، الهيئة المصرية العامة للكتب، القاهرة، ٢٠١١.
- تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، تقديم: د. يوسف المرعشلي، دار المعرفة،ط٢، بيروت، ١٩٨٧.
- جامع العلوم والحكم، ابن رجب الحنبلي، دار المعرفة، بيروت.
- الجانب الديني للفلسفة، جوزايا روسي، ترجمة: أحمد الأنصاري، مراجعة حسن حنفي، المركز القومي للترجمة،ط٢، القاهرة، ٢٠٠٩.
- الحسنة والسيئة، شيخ الإسلام ابن تيمية، تحقيق: محمد الخشت، دار الكتاب العربي،ط١، بيروت،١٤٠٥.
- حيوان اللغة، تشارلز تايلور، ترجمة: حسام نايل، دار معنى، ط١، ٢٠٢١.



- الخير والشر، فريدريك نيتشه، ترجمة:حسان بورقية، أفريقيا الشرق، الدار البيضاء، ٢٠٠٦.
- رسالة في الطبيعة البشرية، ديفيد هيوم، ترجمة: عبد الكريم ناصيف، دار الفرقد، ط١، دمشق، ٢٠١٦.
- روح الشرائع، مونتسكيو، ترجمة: عادل زعيتر، منشورات الجمل، ط١، بيروت،٢٠٢١.
- سنن الترمذي، محمد بن عيسى الترمذي، تحقيق وتعليق: أحمد محمد شاكر ومحمد فؤاد عبد الباقي، وآخرون، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي، ط٢، القاهرة، ١٣٩٥ه.
- صحيح مسلم، مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه، القاهرة، ١٣٧٤هـ، صورة: دار إحياء التراث العربي ببيروت.
- صلة الأخلاق بالعقيدة والإيمان، د. سليمان الغصن، دار العاصمة، ط١، الرياض، ١٤١٥.
- فتح الباري شرح صحيح البخاري، الامام أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، تحقيق عبد العزيز بن باز، ومحمد عبد الباقي، دار الكتب العلمية، ط٢، بيروت،١٤١٨.
- فتح القدير، محمد بن علي الشوكاني، دار الفكر، لبروت، ١٩٨٣.
- الفكر الأخلاقي دراسة مقارنة، د. محمد عبد الله الشرقاوي، دار الجيل،ط١، بيروت،١٩٩٠.
- فلسفة هيوم الأخلاقية، د. محمد مدين، دار التنوير، ط١، بيروت، ٢٠٠٩.
- الفلسفة واللغة نقد المنعطف اللغوي في الفلسفة المعاصرة، الزواوي بغوره، دار صوفيا، ط٢، الكويت،٢٠١٨.



- كتاب الأخلاق، أحمد أمين، دار العالم العربي، ط١، القاهرة، ٢٠١٢.
- كتاب الرد على المنطقيين، شيخ الإسلام ابن تيمية، تحقيق محمد حسن إسماعيل، دار الكتب العلمية، ط١، بيروت، ٢٠٠٣.
- المدخل إلى الفلسفة الحديثة، سي. أي. جود، ترجمة: كريم متى، الأهلية للنشر، ط١،عمان، ٢٠٢١.
- المعجم الفلسفي، جميل صليبا، الشركة العالمية للكتاب، بيروت، ١٩٩٤.
- مقالات في الميتافيزيقا والتصوف، إيمانويل كانط، ترجمة: فتحي إنقزو، صوفيا للنشر، ط١، الكويت،٢٠٢٢.
- المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج، محيي الدين يحيى بن شرف النووي، دار إحياء التراث العربي، ط٢، بيروت،١٣٩٢.
- الموسوعة الفلسفية المختصرة، جوناثان ري، ترجمة: فؤاد كامل وآخرون، دار القلم، بيروت
- نزاع الكليات، إيمانويل كانط، ترجمة فتحي إنقزو، دار صوفيا، ط١، الكويت،٢٠٢٣.

المراجع باللغة الإنجليزية:

- Charles Pigden, Hume on Is and Ought, Issue ٨٣, Philosophy Now, ٢٠١٠.
- Stilley, Shalina, "Natural Law Theory and the "Is"--"Ought" Problem: A Critique of Four Solutions" *Dissertations,* Marquette University, ٢٠١٠.



فهرس الموضوعات